راشومون

وقصص أخرى

تأليف : رايونوسوكي أكوتاجاوا

ترجمة : كامل يوسف حسين

دائرة الثقافة والإعلام
الشارقة

راشومون

وقصص أخرى

راشـــومـــون

وقصص أخرى

تأليـــف

رايـونوسـوكي أكوتاجـاوا

ترجـمـــة

كامـل يوســف حســين

اصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة ، ٢٠٠٤م

٨٩٥,٦٠١ أكوتاجوا، رايونوسوكي
أ ر ر راشومون وقصص أخرى/رايونوسوكي اكوتاجوا؛
ترجمة كامل يوسف حسين. ـ الشارقة: دائرة الثقافة
والإعلام، ٢٠٠٤
١٥٠ ص ؛ ٢٢ سم
١ ـ الأدب الياباني ٢ ـ القصص اليابانية
أ ـ كامل يوسف حسين (مترجم) ب ـ العنوان

ISBN/9948-04-298-0

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدى
دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة

الطبعة الأولى ٢٠٠٤م
الناشرون: دائرة الثقافة والإعلام ـ الشارقة
ص. ب : ٥١١٩ الشارقة
هاتف: ٥٦٧١١١٦ ٠٠٩٧٦
برّاق ٥٦٦٢١٢٦ ٠٠٩٧٦

مقدمة المترجم

لم يكن هناك، بقدر ما أعلم، في المكتبة العربية كتاب واحد يحمل اسم القاص والشاعر الياباني رايونوسوكي أكوتاجاوا، قبل مثول هذا الكتاب بين يدي القارىء العربي. بل يمكنني القول إنه من بين قصصه المئة التي طيرت شهرته إلى آفاق الدنيا لم تترجم وتنشر بين دفتي كتاب إلا قصة واحدة لا غيرها إلى اللغة العربية، وكأنها الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، هي قصة «صور من الجحيم» التي يضمها كتاب «مختارات من الأدب الياباني» الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في سلسلة «الألف كتاب» الثانية عام ١٩٨٨. وإن كان كل من تابع «البرنامج الثاني» من إذاعة القاهرة، المعنى بقضايا الأدب والفن والثقافة، يعرف أن عدداً لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من قصصه قد ترجم وأذيع عبر البرامج المميزة المندرجة في إطار هذه الإذاعة،

في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، ومنها فيما لايزال عالقاً بالذاكرة قصة «خيط العنكبوت».

الحق أنني لست أدري السر في أنني لم أترجم شيئاً لأكوتاجاوا في مشروعي للتعريف بالأدب الياباني، الذي قدمت للقارىء في إطاره ترجمة لأكثر من خمسة آلاف صفحة من الأدب الياباني، مع تعريفات وافية بعدد كبير من المبدعين الذين قدموا لنا الأعمال المندرجة في تلك الصفحات. والاستثناء الوحيد من ذلك هو ترجمتي لقصة «حكاية انتقام» التي نشرت في ديسمبر عام ٢٠٠٠ في إحدى الصحف العربية. وليس ذلك راجعاً إلى عدم معرفتي بأعماله، فقد قرأت بالطبع، الكثير من أعماله فضلاً عن بعض الدراسات عنه.

ربما كان السر في ذلك يكمن في أن اليابانيين أنفسهم لم يكونوا على قدر كبير من الحماس لتقديم أعماله للعالم الخارجي، نظراً لطبيعتها المغرقة في الكآبة والسوداوية والغرائبية، وإن شئت دليلاً على هذا، فما عليك إلا أن تلقي نظرة على كتاب «مختارات من عهد شوا: قصص يابانية حديثة» الصادر عن دار كودانشا إنترناشيونال في مجلدين يغطيان الفترة من عام ١٩٢٩ إلى ١٩٨٤ ويقعان في ٤٢٨ صفحة، ويعتبران من أهم مختارات الأدب الياباني الحديث، إن لم يكن أهمها على الأطلاق، حيث يضمان أعمالاً لخمسة وعشرين كاتباً

يابانياً، إذ لا نجد فيه عملاً لأكوتاجاوا، بل لا نجد مجرد إشارة عابرة له.

إذا كان هذا الموقف مفهوماً في الدوائر النقدية والأدبية اليابانية النافذة، والتي لم يتردد أكوتاجاوا في مجاهرتها بالعداء، فإنني لا أجده مفهوماً عند من كتبوا عن الإبداع الياباني في اللغة العربية، فإذا ألقيت نظره على كتاب «الرواية اليابانية الحديثة» للكاتب والمترجم العراقي عبد الواحد محمد الصادر عن سلسلة كتب «آفاق» الشهرية عام ١٩٨٦، فإنك لن تجد أياً من أعماله فيها، ولن تجد إشارة واحدة إلى اسمه.

الكتاب الماثل بين يديّ القارىء هنا ليس محاولة لاستدراك هذا النقص، فيقيني أن مثل هذه المحاولة مكانها الصحيح مجلد يضم قصصه المئة، ربما يقدمه للقارىء العربي أحد أبناء الأجيال الجديدة من المترجمين العرب، الذين أحلم بأنهم سيطلون ذات يوم، ويرون في ما قدمناه للمكتبة العربية إنجازاً متواضعاً، يسعون إلى تجاوزه. وأقصى طموحنا أن يقدروا أن القليل الذي قدمناه إنما حملناه على أيدينا حروف محبة للقارىء في زمن صعب، لاهث، وحزين إلى حد الفجيعة.

لقد أحببت أن أضم هذا الكتاب إلى حروف المحبة تلك، التي أتقدم بها على استحياء للقارىء، مؤكداً أنني لست باخلاً، وإنما فقيرة خزائني، مقفرة حقول حنطتي، وأن تلك هي الشمعة

الوحيدة التي وجدتها بجيب معطفي، كما كان «بلدياتي» الشاعر العظيم صلاح عبدالصبور يقول.

الحق أنني ذات أصيل خريفي، في خريف العمر، وقفت في إحدى مكتبات أوساكا أجمع كل ماسمحت به ميزانيتي المتواضعة من كتب، ولم أتردد في شراء الأصل الذي ترجمت منه هذا الكتاب الماثل بين يدي القارىء، فقد كنت أتطلع إلى تقديم هذه المجموعة من أعمال أكوتاجاوا للقارئ، لعل الأجيال الشابة من الكتاب العرب، التي تحمست بصفة خاصة لترجمتي لمجموعة «قصص بحجم راحة اليد» لياسوناري كاواباتا، تجد في هذه المجموعة التي أقدمها هنا ما تتحمس له بالقدر نفسه، فيما أرجو، خاصة وأنني أعتقد أنها ستجد لدي أكوتاجاوا أصداء من الكتابة التي تنجزها هذه الأجيال، والتي يصفها بعض النقاد بالعدمية، ولست أراها كذلك، بل أرى فيها إضاءة صحية في زمن من عتمة.

لست أريد أن أطيل على القارئ، ولكنني أود هنا أن أشير، في معرض إلقاء الضوء على حياة أكوتاجاوا وإبداعه، إلى أربع نقاط لا غيرها، هي أقرب إلى مهام عاجلة يتعين علينا القيام بها، وهي كالتالي:

١ - لوحة خارجية عن حياة أكوتاجاوا.

٢ - المراحل الثلاث التي يندرج فيها إبداع أكوتاجاوا.

٣ - السجال بين أكوتاجاوا وجونتشيرو تانيزاكي.

٤ - موقع هذه المجموعة الماثلة بين أيدينا هنا من مجمل أعمال أكوتاجاوا.

❖ أولاً: إذا حاولنا أن نرسم لوحة خارجية سريعة لحياة أكوتاجوا، فإننا لابد لنا من الإشارة إلى أنه ولد في عام ١٨٩٢ في الجزء القديم من طوكيو، وكان الابن الأكبر لتوشيزو نيهارا، وبعد وقت قصير من مولده، جُنت أمه، وكانت تدعى فوكو، وهي مأساة قدِّر لها أن تطارده طوال عمره. من هنا فليس عجيباً أن نجده يكتب عنها، مستحضراً تلك الذكريات المريرة التي ترتبط بها، بعد سنوات طويلة، حيث يقول: «كانت أمي امرأة مجنونة. ولم أعرف مرة واحدة ما يشبه عاطفة الأمومة من جانبها. كانت تجلس منفردة، على الدوام، في دار العائلة في شيبا، وشعرها ملفوف حول مشط، وهي تنفث دخان غليون طويل. وكانت ضئيلة الجرم، صغيرة المحيا للغاية. وكان وجهها - وليس بوسعي تفسير هذا - على الدوام رمادي اللون، مجرداً من كل ما يوحي بحيوية تنبض بالحياة».

وقد أعقب هذا المنعطف المأساوي في حياة أكوتاجاوا قيام خاله متشياكي أكوتاجاوا بتبنيه، ومن ثم حمل لقب عائلته، وفقاً

للمفهوم الياباني للتبني.

صقلت موهبة أكوتاجاوا الأدبية عبر دراسة الأعمال الكلاسيكية الصينية والمؤلفين الغربيين واليابانيين المعاصرين، وبصفة خاصة موري أوجاي وناتسومي سوسيكي. وقد أشاد الأخير بأعمال أكوتاجاوا، التي أصدرها خلال دراسته للأدب، ودفعه للعمل كاتباً، استناداً إلى القصص التي نشرها بالفعل خلال دراسة الأدب الإنجليزي في جامعة طوكيو.

عام ١٩١٦ صدرت مجموعته «راشومون»، فكرسته بحسبانه شخصية ذات أهمية فريدة وسط أبناء جيله من الكتاب. وفي عام ١٩١٨ تزوج من فوميكو تسوكاموتو، لتبدأ السنوات الأولى في مسيرته الإبداعية الحافلة بالإنتاج.

عام ١٩٢٤ شرع في كتابة قصص ذات خلفية حديثة، وبدأ مشوار تردى صحته، وتوالت مشكلات شخصية عديدة قلصت من مساحة إبداعه، وأدخلت الكآبة الشاملة في أعماله.

عام ١٩٢٧، وفي الخامسة والثلاثين من العمر، أقدم أكوتاجاوا على الانتحار بتعاطي السم في داره. وهو الحدث الذي أدى إلى إثارة موجة من التعليقات واسعة النطاق، حيث بدا للكثيرين أن موته على هذا النحو يأتي رمزاً لمدى عمق الأزمة والقلق، اللذين يأخذان بخناق فلاسفة ذلك الزمان وأدبائه وكتابه ومبدعيه.

❖ ثانياً مراحل إبداع أكوتاجاوا الثلاث: يصعب، إلى أبعد الحدود، تقسيم إبداع أي كاتب إلى مراحل بعينها، فمثل هذا التقسيم لابد له، في نهاية المطاف، من أن يكون تعسفياً، ومفروضاً من أعلى، وليس نابعاً من واقع نهر الإبداع نفسه. وعلى سبيل المثال، فإنه يصعب علينا أن نحدد المرحلة الأولى، أو السنوات الأولى، من إبداع أكوتاجاوا، وأن نقول على وجه الدقة أين تبدأ وأين تنتهي، ففي البدايات المبكرة، أي في تلك السنوات التي كان أكوتاجاوا يدرس خلالها الأدب الإنجليزي في جامعة طوكيو، بدأ في نشر سلاسل مميزة من القصص، قامت في مجملها على أساس الحكايات اليابانية المنتمية إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ولكنها أُعطيت دفعات قوية من الرؤية السيكولوجية الحديثة، وأُفرغت في قالب أسلوبي أدبي رائع.

من هذه القصص، على سبيل المثال، قصة «هانا» أو «الأنف»، وهي تصور العالم المفعم بالعذاب الذي يعيش فيه كاهن بوذي رفيع المرتبة، يزعجه أنفه الكبير، على نحو غير مألوف. وبينما يبدو الكاهن هادئاً في الظاهر، إلا أنه في أعماقه يعاني إلى حد كبير من الشعور بالحرج. ويتصادف أن يعثر على أسلوب سري يكفل تصغير أنفه إلى الحجم الطبيعي. غير أن هذا التحول. خلافاً لما هو متوقع، يثير الازدراء، علانية وبلا رحمة. وذات

صباح يستيقظ الكاهن، فيشعر بالارتياح، حيث أن أنفه قد عاد إلى ما كان عليه، فيتنهد ارتياحاً، ويحدّث نفسه قائلاً: «الآن لن يسخر مني أحد». يقول ذلك في الوقت الذي يتدلى أنفه متأرجحاً في نسيم الصباح. وكما أشرنا، فقد لفتت هذه القصة انتباه ناتسومي سوسيكي، فأشاد بها كثيراً، في رسالة بعث بها إلى المؤلف.

السؤال الآن هو: كيف يمكننا أن نفصل هذه القصص عما يعرف بقصص السنوات الأولى أو المرحلة الأولى؟ من الواضح أنه من الصعب علينا أن نجد إجابة عن هذا السؤال. الأمر الذي يضع عملية التقسيم بكاملها موضع التساؤل.

أياً كان الأمر، فإن النقاد عادة يقسمون مسار حياة أكوتاجاوا الإبداعي إلى ثلاث مراحل، هي كالتالي:

أ - المرحلة الأولى: من المعروف أنه بعد تخرج أكوتاجاوا من جامعة طوكيو، عام ١٩١٦، عمل بالتدريس لوقت قصير في كلية الهندسة البحرية، ثم قرر أن يكرس وقته كله للكتابة، ثم بعد زواجه من فوميكو تسوكاموتو، عام ١٩١٨، بدأت السنوات الأولى من إبداعه، وهي السنوات التي وصفت بأنها الأكثر إنتاجاً في مسار حياته العملية، حيث نشر بعضاً من أكثر أعماله تحققاً، بما في ذلك قصة «راشومون» التي يتضمنها هذا الكتاب الماثل بين يدي القارئ، وذلك عام ١٩١٥ وقد ترجمت إلى الإنجليزية

عام ١٩٣٠ وكذلك قصة «إيموجايو» التي أنجزها عام ١٩١٦ وترجمت تحت عنوان «عصيدة إليام» إلى الإنجليزية عام ١٩٥٢، وهي متضمنة في هذا الكتاب أيضاً، و«هانكيتشي» التي كتبها في عام ١٩١٦ أيضاً وترجمت إلى الإنجليزية تحت عنوان «المنديل» عام ١٩٣٠. و«هو كيونين نوشى» عام ١٩١٨ وترجمت إلى الإنجليزية عام ١٩٣٠ تحت عنوان «خيط العنكبوت» و«جيجو كوهين» عام ١٩١٨ وترجمت تحت عنوان «ستار الجحيم» إلى الإنجليزية عام ١٩٤٨.

ب - المرحلة الثانية: في هذه المرحلة رسخ أكوتاجاوا أقدامه في الدوائر الأدبية، وعلى وجه التحديد عام ١٩١٨، حيث نظر إليه باعتباره معارضاً بارزاً للحركة الطبيعية المعروفة باسم «شايزين شوجي» التي هيمنت على الأدب الياباني في صدر القرن العشرين بلهجتها الاعترافية الكئيبة.

وفي الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٢٢، واصل أكوتاجاوا كتابة القصص، مستلهماً المادة من الحكايات القديمة، مع إضفاء تفسير عصري عليها، وصياغتها في حلة من النثر المصقول على نحو رائع.

من أبرز أعمال أكوتاجاوا في هذه المرحلة الثانية، أو الوسيطة، قصة «نانكين نو كيروسوتو» التي تعود إلى عام ١٩٢٠ وترجمت لاحقاً تحت عنوان «المسيح في نانكينج» وكذلك قصة

«نوشيشون» التي كتبها عام ١٩٢٠ وترجمت تحت عنوان «توتزي - نشون» عام ١٩٤٤. وهناك عنوان «لوحة جبل خريفي» ١٩٦٢. وقصة «يابو نو ناكا» العائدة إلى عام ١٩٢٢ وقد ترجمت بعنوان «في غابة» إلى الإنجليزية عام ١٩٥٢. ومعروف للجميع أنها شكلت مع قصته «راشومون» المادة الأصلية لفيلم أكيرا كيروساوا الرائع «راشومون» وهاتان القصتان تتصدران الكتاب الماثل بين يدي القارىء.

ج - المرحلة الأخيرة: امتدت هذه المرحلة الأخيرة، أو النهائية، في مسار حياة أكوتاجاوا العملية في الفترة ما بين ١٩٢٣ إلى ١٩٢٧، وعرقل تدهور حالته الصحية إبداعه فيها. وكان جانب كبير من إبداعه في هذه الفترة منتمياً إلى قالب محدد، هو أدب السيرة الذاتية، بل إن بعضه حاكى، بشكل صريح، صورة مواد اليوميات أو المذكرات، مع صياغتها في قالب نثري مصقول.

ربما كان أهم عمل ينتمي إلى هذه المرحلة هو رواية «كابا»، التي تعود إلى عام ١٩٢٧، والتي ترجمت تحت العنوان نفسه عام ١٩٤٧. وهي حكاية ساخرة تدور حول الكائنات الخرافية البرية - البحرية المعروفة باسم «كابا» والتي تظهر في الفولكلور الياباني كثيراً، وقد صادفناها عند كاواباتا في «قصص بحجم راحة اليد» من ترجمتنا.

وتعد «هاجوروما» التي تعود إلى عام ١٩٢٧، والتي ترجمت عام ١٩٦٥ تحت عنوان «الدولاب المسنن» عملاً آخر من أبرز الأعمال التي تنتمي إلى هذه المرحلة النهائية، وهي صورة مفزعة لذهن حساس بشكل فذ، يفقد تدريجياً سيطرته على الواقع، ويتداعى.

في ذروة هذه المرحلة، شعر أكوتاجاوا بالإعياء، وهيمن عليه خوف حقيقي من أن يكون قد ورث الاختلال الذهني الذي سبق له أن أصاب أمه، فأقدم على الانتحار - كما أشرنا - بتعاطي السم، وهو في الخامسة والثلاثين من العمر، تاركاً وراءه ميراثاً من القصائد والمقالات وأعمال القص، درتها الفريدة مئة قصة بديعة الصياغة فضلاً عن رواية «كابا».

بعد ثماني سنوات من موت أكوتاجاوا، تم تأسيس الجائزة التي تحمل اسمه، وهي جائزة أدبية سنوية للأعمال المميزة، التي يقدمها كتاب جدد واعدون، وذلك تكريماً لذكراه. وقد أصبحت - وهي لاتزال حتى اليوم - أبرز جائزة أدبية في اليابان.

❖ ثالثا - أكوتاجاوا وتانيزاكي: شهدت المرحلة الثالثة من إبداع أكوتاجاوا، التي أشرنا إلى لمحات منها، سجالاً أدبياً شهيراً في تطور الأدب الياباني، هو الذي دار بين أكوتاجاوا وبين الأديب والروائي جونتشيرو تانيزاكي.

في هذا السجال، أعلى أكوتاجاوا من شأن النزعة الفنائية،

باعتبارها القيمة الأكثر بروزاً في عالم القص، وقلل من شأن دور البنية الروائية. ومن المؤكد أن ذلك لم يكن وليد الصدفة، ولا جاء اتفاقاً، وإنما هو النتاج المباشر للتأثر العميق بالتقاليد اليابانية في القص، القائمة على الاهتمام الكبير برصد التحولات المزاجية للكاتب وعدم الاكتراث بالبنية أو الشكل الكلي للعمل من ناحية والتأثر بتيارات معينة في الأدب الأوروبي، من ناحية أخرى. لو أردنا مثلاً في هذا الصدد من واقع أعمال أكوتاجاوا، فما علينا إلا أن نلقي نظرة على قصة «الترس المسنن» التي تعد في جوهرها سجلاً كئيباً للجنون، الذي كان يرفرف على عالم مؤلفها وقت كتابتها، حيث نلمح إحالة إلى التأثر العميق بالأدب الغربي، بحيث نحس كما لو كان الكاتب يعيش مع أشباح أدبية أوروبية. دعنا نتأمل قوله: «لدى عودتي إلى الغرفة، فكرت في الاتصال بمستشفى معينة للأمراض العقلية، ولكن الذهاب إلى هناك يعني الموت بالنسبة لي. وبعد الكثير من التردد شرعت في قراءة رواية «الجريمة والعقاب» للتسرية عن نفسي. غير أن الصفحة التي وقعت عليها كانت من رواية «الإخوة كارامازوف». وكانت فقرة من تعذيب إيفان. ستراندنبرج، دي موباسان، ذاتي في هذه الغرفة».

في مقال شهير لإيان بوروما بعنوان «روح اليابان بين تانيزاكي وأكوتاجاوا» نشرته مطبوعة «نيويورك ريفيو أوف

بوكس» يعلن بوروما انحيازه إلى تانيزاكي في السجال الذي دار بينه وبين أكوتاجاوا، ويقول إنه يستخدم صفة الكاتب العظيم ببعض التردد في حالة أكوتاجاوا، وبدون تردد في حالة تانيزاكي.

يعرب بوروما عن اعتقاده بأنه من خلال فهم تانيزاكي العميق للنزعة الشهوانية يقترب من جوهر الطبيعة الإنسانية، على نحو يفوق ما فعله أكوتاجاو، وقد استطاع أن ينقل ذلك في فنه، وقد واصل نثره الحياة، بينما كان أكوتاجاوا، الذي انتهى في هذه السن المبكرة، يعرف أن نثره يحتضر، وربما كان ذلك هو السبب في أنه لم يعد بمقدوره أن يحتمل الحياة.

لست أشك في أن مقال بوروما - شأن الكثير من كتبه التي تناول فيها اليابان والشرق عموماً - مهم حقاً، وجدير بالقراءة والتدبر والتأمل طويلاً، لكنني أحسب أنني أخالفه تماماً في ما وصل إليه، ذلك أنني أعتقد أن أكوتاجاوا هو الذي قدرت له الحياة حقاً، وكتب له أن يتواصل معنا، بعد قرابة قرن أو يقل قليلاً من كتابة أفضل أعماله.

يقيناً أن كتابات تانيزاكي، بما تعكسه من ولع مفرط إلى حد الاستحواذ بالجنس، هي كتابات مسلية، جذابة، وقادرة على استقطاب القراء، في كل زمان ومكان، غير أنني أعتقد أنه يقف عند هذا بالضبط. إنه يسليني لبعض الوقت، لكنه لا يقترب من

روحي، من عذابي، من جوهر ما يؤرقني، وما سيظل يؤرقني، إلى أن أبقى قاب قوسين أو أدنى من قبري.

بالمقابل، فإن أعمال أكوتاجاوا، حتى وإن اتسمت بالطابع الجهم وبالكآبة، إلا أنها لا تخدعني، ولاتحاول أن تضحك عليَّ، لا تعاملني كأني كلب تلقي له عظمة يتلهى بها، لا تخاطب فيَّ ما هو أسفل خاصرتي، مستغلة ضعفي البشري حيال جغرافيتي تلك، وإنما هي ترحل بي إلى وجعي الحقيقي، إلى البحث المؤرق في قرار الروح.

من وجهة نظري، باعتباري كاتباً عربياً يعاني من الحيرة والتمزق في صدر الألفية الثالثة، فإن أكوتاجاوا يهمني، ويعنيني، لانه على الرغم من أنه لم يكن كاتباً سياسياً، بالمعنى الواضح والمباشر، إلا أنه كان شديد الإدراك للتمزق الروحي الذي صاحب التحديث الياباني على الطريقة الغربية، لم يكن ما يعاني منه حنيناً موجعاً إلى اليابان التقليدية، فعلى الرغم من استلهامه لبعض مادته منها، إلا أنه كان بعيداً كل البعد عن ذلك، وإنما كان جوهر ما يسعى إليه هو تلك الديناميات الهائلة التي يمكن أن تنقذه من الشعور بالاغتراب، الذي أفضى إلى تمحور الكثيرين حول ذواتهم.

ربما لهذا، بالضبط، يهمني وصف أكوتاجاوا الدقيق والتفصيلي لعذابه الذهني والروحي، الذي أفضى به في نهاية

المطاف إلى الانتحار، وأرى فيه وثيقة مؤثرة إلى أبعد الحدود، حيث تحس عبر سطوره بالحياة وهي تستنزف منه قطرة فأخرى حتى النهاية، من دون أن يبقى شيء إلا العقل، الذي يتبدى صافياً على نحو ثلجي رهيب، حينما ينداح إلى الهلاوس أو منها.

في قصة «حياة أحمق» التي كتبها أكوتاجاوا في قالب يجعلها نوعاً من مذكرة الإبلاغ عن انتحار، والتي سبقت بوقت قصير إقدامه الفعلي على الانتحار، نجده يقارن نفسه بإيكاروس، الذي زود فولتير عقله بجناحين اصطناعيين، ويقول أكوتاجاوا:

«رفرف بهذين الجناحين اللذين أبدعهما الإنسان، انساب صاعداً إلى رحاب السماء، حممه نور العقل والنشوة الإنسانية، وغاض الحزن بعيداً تحت ناظريه، حلق فوق المدن الجديرة بالازدراء، تاركاً السخرية والهزء يتساقطان. ومضى صاعداً نحو الفضاء الذي لا يحده حد، متجهاً نحو الشمس مباشرة. وقد بدا أنه نسي أنه بمثل هذين الجناحين اللذين صنعهما إنسان وقد احترقا بوهج الشمس هوى يوناني قديم إلى قرار البحر».

❖ رابعاً - مكانة «راشومون» من مجمل أعمال أكوتاجاوا:

لست أشك بأن كثيراً من قراء هذا الكتاب سيهتمون بصفة خاصة بالقصة التي منحت المجموعة عنوانها «راشومون» وكذلك قصة «في غابة» باعتبار أن هذين العملين قد شكلا المادة التي

صيغ منها فيلم «راشومون»، الذي يعد من أبرز روائع المخرج السينمائي الياباني الشهير أكيرا كيروساوا. وهذا أمر مفهوم، فقد كان لغزاً كبيراً بالنسبة لي - كما هو بالنسبة لكثيرين - كيف صيغ هذا العمل السينمائي المميز من تلك الصفحات القلائل، ولاحصر للمرات التي شاهدت فيها الفيلم، وعدت إلى القصتين، محاولاً حل هذا اللغز.

غير أن هذا البعد - على أهميته - ليس أهم ما في الكتاب الماثل بين يدي القارىء، وإنما في اعتقادي أن أهم ما فيه هو أنه يقدم لنا درة أعمال أكوتاجاوا، ويوجه لنا دعوة إلى أن نضع يدنا على ترجمة عربية شاملة، إن لم يكن لأعماله الكاملة، فعلى الأقل لقصصه المئة الأكثر شهرة.

في اعتقادي أن هذه القصص تقدم للقراء وللكتاب على السواء زاداً بالغ الأهمية، في رحلة الاغتراب والتمزق، التي نعيشها جميعاً في العالم العربي من الماء إلى الماء.

.. وبعد، فهذا كتاب قليل في حجمه، عظيم في قدره، يضعنا بالضبط عند ذلك المنعطف الذي نعاني فيه نحن العرب من تمزق روحي، في غمار تجربة تحديث يبدو لكل ذي عينين أننا حيالها لا أرضاً قطعنا ولا ظهراً أبقينا. ويتيح لنا أن نتأمل ما نحن حياله، لعلنا نجد منه مخرجاً.

تصدير

اختيرت القصص الست التي تضمها هذه المجموعة بهدف تقديم أروع كتابات أكوتاجاوا وأكثرها تمثيلاً له. وهناك قصة واحدة من بينها (هي قصة «راشومون»)، ظهرت في ترجمة سابقة.

أود الإعراب عن شكري للأشخاص التالية أسماؤهم لمساعدتهم الكريمة، ولاقترحاتهم، وانتقاداتهم القيمة، سي.جي. ويلز كبير كتاب فار إيست نتورك، والتر إي. مورجان رئيس فرع كلية الإدارة والمالية التابع لمركز التعليم المستقل، هارولد جوسلينج وجون روكارد مراسلي العلاقات العامة بالكومنولوث

البـريطاني، ريتشـارد فـارنورث من العـاملين بفـرع كليـة الإدارة والماليـة التـابع لمركـز التـعليم المسـتقـبل سـابقـاً، ولفتنانت د.ل. دونوهيـو من العـاملين بالقسـم الصحـافي الاسـتشـاري في كليـة الإدارة والمالية سابقاً.

تاكاشي كوجيما

طوكيو - اليابان

مقدمة

يعد تصوير خلفية رايونوسوكي أكوتاجاوا وحالته المزاجية مخاطرة بالوقوع في فخ كليشيه كئيب، فقد كان كاتباً لامعاً، حساساً، متشائماً، وعصابياً، وأقام في طوكيو، حيث التحق بالجامعة فيها، وعمل بالتدريس فترة قصيرة، والتحق بفريق العاملين الأدبي في إحدى الصحف. بل إن انتحاره المبكر (عام ١٩٢٧ عن خمسة وثلاثين عاماً) لم يؤد إلا إلى إبراز صورة مثقف ياباني حديث، يعد ضحية من ناحية لمجتمع غير متعاطف ومن ناحية أخرى لثقافة منقسمة على نفسها. لكنها صورة غامضة مركبة، ذلك أن أكوتاجاوا نفسه، المنعزل، المراوغ، الفرد، يظل منسحباً وراء الواجهة المصقولة لأعماله الكاملة. وكل ما تمس الحاجة إلى معرفته عن مؤلفها، إلى جوار اسمه المطبوع على الغلاف السميك، ربما يمكن العثور عليه في تضاعيف هذه

القصائد، المقالات، الكتابات المنوعة، وما يزيد على مئة من القصص المنجزة بصورة بديعة.

للقصص سطح لامع يخطف البصر، وربما يخدع ويضلل. وقد وصف النقاد السطحيون أكوتاجاوا بأنه متكلف، أو متحلل، أو قللوا من شأنه باعتباره هاوياً ماهراً على نحو متعب. ولما كانوا غير متأهبين لقوة أعماله الهجائية التي أطلقها في أواخر حياته، فقد افترضوا أنه لا يكترث إلا بالنسيج البديع لنثره. ومن شأن الترجمة أن تحمينا من غوايات أسلوبه هذا، غير أنها تشجع خطأ مماثلاً، حيث إن ظلال معاني نثر أكوتاجاوا هي ما تنقل لنا جوهر فكره. وشأن ناتسومي سوسيكي وأوجاي هوري، اللذين كان أكوتاجاوا معجباً بهما، فقد استخدم هذه اللغة برهافة ودقة وبثراء عمقته معرفته بآداب عديدة. ومما له مغزاه أن كتاباته الأولى المنشورة كانت ترجمات لييتس وأناتول فرانس. وقد أشار ذات مرة إلى أن الكلمات لابد لها من أن تفصح عما يتجاوز معانيها المعجمية البسيطة، حيث كان لديه حس شاعر بالنسبة لأشكالها ونكهاتها وكذلك التباساتها، وقد جمع بينها بنضارة وإيجاز كبيرين إلى حد أن صياغته لها لم تفتقر إلى التميز قط. وشأن بيكاسو، فإنه غالباً ما نوَّع أسلوبه، ولكنه على الدوام، وأياً كان المزيج المحدد من اللغة اليابانية ولغة الماندرين الذي يستخدمه، فقد سيطر عليه بدقة بالغة. ولما كان

شديد السيطرة على الطابع العام لما يبدعه، فقد منح قصصه سطحاً كلاسيكياً بديعاً، ملوناً، لكنه لا تشوبه شائبة بفعل اللماحية والدفء القابعين في أعماقه، واللذين يصلان بألقهما إلى حد الكمال. وما من شيء قُدِّر له أن يمس تماسك أسلوبه، وهي قاعدة تنطبق حتى على التنويعات المتوهجة بالحيوية لما هو كئيب وملغز.

كان النأي عن العمل إستراتيجية أساسية بالنسبة لأكوتاجاوا، فهو باعتباره راوية كان يحب أن يكون محتجباً، مجرداً من الطابع الشخصي، وقد حرص على الالتزام بالنظرة العاجلة وغير المباشرة. وعندما كان يلج قصصه، فإن ذلك كان عادة في الدور المحدود، المتمثل في المراقب أو مدون النص المهذب الذي يحرص على حجب حضوره. وقد استخدم الحكايات والأساطير القديمة، المشاهد التاريخية للعهد الهايبني النائي، أو العصور الإقطاعية التي أعقبته، هذه العناصر كلها استخدمها لا ليحول معرفته المستفيضة إلى صورة، وإنما ليثري مضامين موضوعاته، وليوسع نطاقها، وللحفاظ على مسافة جمالية. وقد كانت الفترة المبكرة لدخول المسيحية إلى اليابان في القرن السادس عشر أثيرة بالنسبة إليه، وقد استغلها في قصة «الضحية» إلى حد القيام بعملية خداع أدبي، وذلك من خلال دعم أسلوب عتيق بمصدر مرجعي، أقر بعد فترة من

الخلاف بين المثقفين بأنه من بنات أفكاره. وقد ناسب ذوقه الساخر أن يلعب دور الساحر الذي يترك الجمهور محدقاً بذهن شارد في المرآة.

لكن أكوتاجاوا قام بما هو أكثر من خداع المثقفين وإثارة حيرة من لا يلزم الحذر، وقد أثار عداء الرأي النقدي السائد واهتمامه بالأسلوب، تفضيله لأسلوبي الاقتراب غير المباشر وكبح الجماح، ولا مبالاته بالرؤية السائدة، مثل هذه المواقف كانت بمثابة خروج عن العرف بالنسبة للمدرستين الأدبيتين السائدتين كلتيهما. حيث أن الكتاب البروليتاريين الذين ازدهروا في العشرينيات من القرن العشرين لم يجدوا شيئاً مشتركاً بين قصص أكوتاجاوا المراوغة وشرائحهم المختارة من الحياة بعناية، وإن كانت مقطوعة بفظاظة. أما خصومهم الطبيعيون فقد تحركوا باتجاه الفردية الرومانسية، ناسين مفهوم زولا عن التحقيق الاجتماعي. وإذ قدرت لهم الهيمنة منذ الحرب الروسية - اليابانية، فإنهم لم يجيزوا إلا المنهاج الأدبي الذي لايزال من خلفوهم يتمسكون به، باسم «الشيشوستسو»، أي رواية الأنا، أو القص بضمير المتحدث. وقد كان هذا هو «الاعتراف» الذي يتراوح بين اليوميات العاطفية والتقرير الإكلينيكي لحياة المؤلف العاطفية. وعلى الرغم من استنفاد شكل السيرة الذاتية في القصص بعد بروست، فإن هؤلاء

الروائيين مضوا بشغف في سبر أغوار جراحهم وتعريض أنفسهم للوم. وبينما لم يتأثر أكوتاجاوا بها العرض لعدد كبير للغاية من الذوات المضجرة، فقد مضى في طريقه الخاص. ويشير عدد محدود من قصصه، على نحو ماكر، إلى أن الاعتراف ذاته قد يكون زائفاً، وعلى سبيل المثال، فإن قصته «في غابة» تحوّل حكاية ميلودرامية قديمة إلى سلسلة من الشهادات المتضاربة تقوض ثقتنا المضجرة في التمييز بين الذاتي والموضوعي، الحقيقة والخيال. بل إن الشهادات الكئيبة التي تركها لنا قبل الانتحار تضم التماعات من السخرية من شأنها أن تثير حيرة القارئ، الذي لا يقرأ ما بين السطور.

هناك ما يكفي من اللمسات المستمدة من جوناثان سويفت عند أكوتاجاوا بحيث توضح مقته للغباء، الشره، النفاق، والشوفينية الصاعدة آنذاك، لكن تماسكه الفني حال بينه وبين الانضمام إلى معاصريه في النقد الاجتماعي السهل أو الاستبطان الساذج. وإذا كانت منمنماته، المصقولة على نحو بديع، قد بدت في الغالب باردة، مغرقة في المراوغة، واقعة بشدة تحت وطأة الحس النقدي الاستحواذي، إلا أنها ليست زخرفية فحسب على الإطلاق. فما فعله هو وضع قيم مجتمعه موضع التساؤل، إضفاء الطابع الدرامي على تعقيدات النفس البشرية، والقيام بحس متعلق بمذهب (الزن) بما هو ملغز بدراسة التوازن

المتقلقل بين الواقع والوهم. وقد طوَّر العديد من الأساليب الفنية - ابتداء من الواقعية إلى الفانتازيا، من الرمزية إلى السريالية - واستخدمها جميعها في البحث عن الحقيقة الشعرية. لقد كان مثقفاً وفناناً معاً، وقد كانت نوعية إبداعه الفني هي التي مكنته من استكشاف هذه المشكلات الصعبة بالعمق الذي مضى إليه، ومنحت ملاحظاته مثل هذا القالب البديع والقادر على الصمود في وجه الزمن.

هوارد هيبيت

طوكيو - اليابان

في غابة .....

شهادة حطّاب حقق معه مفوض رفيع المستوى من الشرطة

نعم، سيدي، بالتأكيد كنت أنا من عثر على الجثة. فقد مضيت صباح اليوم، كالمعتاد، لقطع حصتي اليومية من أخشاب أشجار الأرز، فعثرت على الجثة في غابة تقع في صدع بالجبال. الموضع بالضبط؟ على بعد حوالي ١٥٠ متراً من طريق مركبات ياماشينا، وهي غابة خيزران وأرز محتجبة عن العيان.

سُجيت الجثة، وكان الميت يرتدي كيمونو حريرياً ضارباً إلى الزرقة، ويعتمر غطاء رأس مجعداً على طريقة كيوتو، وقد اخترقت صدره طعنة سيف نجلاء، وتلطخت أوراق أشجار الخيزران المتساقطة حوله ببراعم دموية. لا، كان الدم قد كف عن التدفق، وتجلط على الجرح، فيما أعتقد. والتصقت به كذلك ذبابة خيل، من دون أن تلقي بالاً إلى وقع خطاي.

تسألني عما إذا كنت قد رأيت سيفاً أو شيئاً من هذا القبيل؟

لا، لا شيء، يا سيدي! لم أجد إلا حبلاً عند جذر شجرة أرز قريبة. و.. طيب. بالإضافة إلى الحبل وجدت مشطاً. كان ذلك كل ما هناك. لقد خاض غمار معركة ضارية، في ما يبدو، قبل أن يلقى حتفه، لأن العشب ووريقات الخيزران المتساقطة قد دهس في المكان بكامله.

- هل كان هناك جواد على مقربة من المكان؟

- لا، يا سيدي، فمن الصعب على الإنسان أن يلج الغابة، دع جانباً أن يدخلها جواد!

شهادة كاهن بوذي جوّاب آفاق حقّق معه

مفوض رفيع المستوى من الشرطة

الوقت؟ كان ذلك، بالتأكيد، حوالي ظهر الأمس، يا سيدي! فقد انطلق الرجل التعس على الطريق المفضي من سيكياما إلى ياماشينا، وكان يمضي باتجاه سيكياما مع امرأة تمتطي جواداً، نما إلى علمي أنها زوجته، وحجب وشاح ينسدل من رأسها محياها عن العيون، وكل ما رأيته هو لون ملابسها، حيث ارتدت رداء أرجوانياً فاتحاً، وكان جوادها أسمر اللون محمراً، له شعر عنق بديع. طول السيدة؟ آه، حوالي أربعة أقدام أو خمسة. وبما أنني كاهن بوذي، فإنني لم أكترث كثيراً بتفاصيلها. طيب. كان

الرجل يتقلد سيفاً، ويتسلح كذلك بقوس وسهام، وأذكر أنه كان يحمل في جعبته حوالي عشرين سهماً غريباً.

لم يدر بخاطري أنه سيلقي مثل هذا المصير. حقاً إن حياة البشر سريعة الزوال، مثل ندى الصبح، أو لمعة البرق، وليست كلماتي بالكافية للإعراب عن تعاطفي معه.

شهادة شرطي حقق معه مفوض رفيع المستوى من الشرطة

الرجل الذي ألقيت القبض عليه؟ إنه قاطع طريق سيئ الصيت، يدعى تاجومارو. وكان وقع من صهوة جواده عندما ألقيت القبض عليه، ومضى يئن ويتوجع على الجسر عند أواتاجوتشي. التوقيت؟ كان ذلك في ساعة مبكرة من الفجر الذي يسدل الستار على البارحة، ومن أجل الإثبات في المحضر يمكنني القول إنني حاولت، مؤخراً، القاء القبض عليه، لكنه هرب لسوء الطالع. وكان يرتدي كيمونو حريرياً قاتم الزرقة، ويتقلد سيفاً طويلاً، مجرداً من الحلى والزخارف. وكما ترى كانت لديه جعبة وسهام حصل عليها من مكان ما. تقول إن هذه القوس وهذه السهام تشبه تلك التي كان القتيل يمتلكها؟ لابد، إذن، أن تاجومارو هو القاتل. القوس المربوطة بشرائح من الجلد، والجعبة المطلية باللك الأسود، السهام السبعة عشر ذات ريش الصقور هذه كلها عثر عليها معه. وأعتقد، نعم، يا سيدي، أن

الجواد، كما تقولون، أسمر، محمر، له شعر عنق بديع. وقد عثرت، بعد الجسر الحجري بقليل، على الجواد، وهو يرعى على جانب الطريق، وقد تدلى عنانه الطويل. يقيناً أن هناك حكمة خفيت عن العيان في قيام الجواد بإلقائه عن صهوته.

من بين كل قطاع الطريق الذين يسرقون الناس فيما حول كيوتو فإن تاجومارو هذا كان مصدر أعظم قدر من البلايا والأحزان للنساء في المدينة. ففي الخريف الماضي، قُتلت زوجة جاءت إلى مؤخرة جبل بندورا القريب من معبد توررايب، للقيام بزيارة في ما يفترض، مع طفلة. وقد دار الشك حوله باعتباره الفاعل. وإذا كان هذا المجرم قد قتل الرجل، فليس بمقدورك تصور ما يمكن أن يكون قد فعله بزوجته. هلا تفضلتم فخامتكم بالنظر في هذه المشكلة كذلك!

شهادة عجوز حقق معها مفوض رفيع المستوى من الشرطة

نعم، يا سيدي، هذه الجثة للرجل الذي تزوج ابنتي. وهو لا ينحدر من كيوتو، وإنما كان ساموراي في مدينة كوكوفو في مقاطعة واكاسا، وهو يدعى كانازاوا نو تاكيهايكو، وعمره سته وعشرون عاماً. كان رقيق الحاشية، ومن هنا فإنني على يقين من أنه لم يفعل شيئاً يستفز غضب الآخرين.

ابنتي؟ اسمها ماساجو، وعمرها تسعة عشر عاماً، وهي صبية خفيفة الروح، محبة للمرح، لكنني على يقين من أنها لم تعرف رجلاً قط إلا تاكيهايكو، ولها محيا صغير، زيتوني، أسمر، ولها شامة عند ركن عينها اليسرى.

بالأمس غادر تاكيهايكو مع ابنتي قاصداً واكاسا. أي حظ سيئ أن تصل الأمور إلى مثل هذه النهاية السيئة! ما الذي صار إليه أمر ابنتي؟ لقد وصلت إلى التخلي عن زوج ابنتي باعتباره شخصاً قد خسرته. ولكن مصير ابنتي يثير قلقي إلى حد المرض. بحق السماء لا تتركوا حجراً من دون أن تقلبوه في غمار البحث عنها! إنني أكره قاطع الطريق تاجومارو ذاك، أو أياً كان اسمه. ليس زوج ابنتي فحسب، وإنما ابنتي.. (تغرق كلماتها الأخيرة في الدموع).

اعتراف تاجومارو

قتلته، لكنني لم أقتلها. إلى أين مضت؟ ليس بإمكاني تحديد ذلك. آه، انتظر لحظة! ما من تعذيب يمكنه جعلي أعترف بما لا أعرفه. الآن وقد وصلت الأمور إلى مثل هذه النهاية، لن أحجب شيئاً عنكم.

بالأمس، بعيد الظهيرة، قابلت ذلك الثنائي. عندئذ تماماً

هبت الريح، ورفعت الوشاح المتدلي، بحيث لمحت وجهها. وفي لحظة احتجب عن ناظري. ربما كان ذلك أحد الأسباب، فقد بدت مخلوقاً فريداً. وفي تلك اللحظة عقدت العزم على أن أحظى بها، حتى ولو اضطررت لقتل رجلها.

لماذا؟ ليس القتل بالنسبة لي شيئاً ذا بال، على نحو ما قد تظنون. عندما تسبي امرأة، فإن رجلها يتعين قتله، على أي حال. وفي القتل أستخدم السيف الذي أتقلده. هل أنا الوحيد الذي يقتل الناس؟ أنتم، ألا تستخدمون سيوفكم؟ إنكم تقتلون الناس بسلطتكم، بمالكم. وفي بعض الأحيان تقتلونهم متذرعين بأنكم تعملون من أجل صالحهم. صحيح أنهم لاينزفون، وهم في أفضل صحة، ولكنكم مع ذلك تكونون قد قتلتموهم. من الصعب القول أينا أكثر خطيئة، أنا أم أنتم. (ابتسامة ساخرة).

لكن سيكون أمراً جيداً إذا كان بمقدوري أن أحظى بامرأة من دون أن أقتل رجلها. لذا عقدت عزمي على سبيها، وبذل قصارى جهدى لكي لا أقتله. ولكن ذلك ليس مطروحاً على طريق مركبات ياماشينا. وهكذا فقد أفلحت في استدراج الزوجين إلى الجبال.

كان ذلك أمراً بالغ السهولة، فقد أصبحت رفيقهما في الترحال، وأبلغتهما بأن هناك، بعيداً في الجبال، رابية عتيقة، وأنني قد حفرت فيها، وعثرت فيها على العديد من المرايا

والسيوف. ومضيت فحدثتهما بأنني قد دفنت هذه الأشياء في غابة وراء الجبال، وأنني أود أن أبيعها بسعر منخفض لكل من يود الحصول عليها. عندئذ.. كما ترون، أليس الطمع فظيعاً؟ بدأ في التأثر بكلامي قبل أن يدرك ذلك. وفي أقل من نصف ساعة كانا يمضيان بجوادهما نحو الجبال معي.

عندما أقبل إلى مقدمة الغابة، قلت لهما إن الكنوز مدفونة فيها، وطلبت منهما القدوم ورؤيتها. لم يبد الرجل اعتراضاً، فقد أعماه الطمع. أما المرأة فقالت إنها ستنتظر على صهوة الجواد. وكان من الطبيعي بالنسبة لها أن تقول هذا إزاء مشهد الغابة الكثيفة. وفي حقيقة الأمر فإن خطتي نجحت تماماً، على نحو ما تمنيت.

تتألف الغابة من أشجار الخيزران وحدها لمسافة ما، وبعد حوالي خمسين متراً إلى الأمام هناك أجمة مفتوحة للغاية من أشجار الأرز. وكانت بقعة ملائمة لغرضي. اندفعت عبر الغابة، وأبلغته بكذبة يمكن ابتلاعها، وهي أن الكنوز مدفونة تحت أشجار الأرز، وعندما حدثته بهذا شق طريقه الكثيف نحو شجرة الأرز الرشيقة التي تلوح للعيان عبر الغابة. بعد قليل خفت كثافة أشجار الخيزران، ووصلنا إلى حيث يشمخ عدد من أشجار الأرز في صورة صف ممتد. وما أن وصلنا إلى هناك، حتى قبضت عليه من الخلف، ولأنه كان محارباً مدرباً يمضي

متقلداً للسيف، فإنه كان قوياً، لكنه أُخذ على غرة، وهكذا لم يكن هناك ما بوسعه القيام به. وسرعان ما شددت وثاقه إلى جذر شجرة أرز. من أين حصلت على حبل؟ شكراً للسماء، فباعتباري سارقاً كان معي حبل، حيث أنني قد أضطر إلى تسلق جدار في أي وقت. وبالطبع، كان من السهل منعه من الصراخ، وذلك بملء فمه بوريقات أشجار الخيزران المتساقطة.

عندما فرغت من أمره، مضيت إلى امرأته، وطلبت منها القدوم لرؤيته، لأنه بدا فجأة وقد أصابه المرض. وما من حاجة تدعو للقول إن هذه الخطة قد نجحت كذلك بشكل جيد، فقد دلفت المرأة إلى أعماق الغابة، بعد أن نزعت قبعتها التي تشبه نبات البردي، حيث مضيت بها، آخذاً بيدها. وفي اللحظة التي وقعت عيناها خلالها على زوجها، استلت سيفاً صغيراً. لم يسبق لي أن رأيت امرأة على مثل هذا القدر من العنف من قبل قط، ولو أنني لم ألزم الحذر لتلقيت طعنة في جنبي. وقد رغت متجنباً الطعنة، ولكنها واصلت توجيه الطعنات لي، وكان حرياً بها أن تجرحني جرحاً عميقاً، أو تقتلني. لكنني أنا تاجومارو، وقد أفلحت في الاطاحة بالسيف من يدها، من دون أن أشهر سيفي. وأكثر النساء ضراوة تغدو إذا جردتها من السلاح عاجزة عن الدفاع عن نفسها. وأخيراً تمكنت من قضاء وطري منها، من دون القضاء على زوجها.

نعم.. من دون القضاء عليه، فلم تكن بي رغبة في قتله، وكنت أوشك على الهرب من الغابة، تاركاً المرأة غارقة في الدموع، عندما تشبثت بذراعي في اهتياج شديد، وبكلمات متعثره طلبت إما أن تموت هي أو زوجها. قالت إنه أكثر تعذيباً من الموت أن يعرف رجلان بعارها،وقالت لاهثة إنها تريد أن تكون زوجة أي ممن يقدر له البقاء على قيد الحياة منا. وعندئذ سيطرت عليّ رغبة جائحة في قتله (اهتياج كئيب).

في غمار سردي للأمر على هذا النحو، لاشك في أنني أبدو أشد قسوة منك، ولكن ذلك يعود إلى أنك لم تر محياها، لم تر بصفة خاصة عينيها المسجورتين، في تلك اللحظة. وفيما كنت أمامها وجهاً لوجه أردتها زوجة لي، حتى ولو أصابتني صاعقة. أردتها زوجة لي.. ملأت هذه الرغبة الواحدة ذهني. لم تكن هذه شهوة فحسب، كما قد تحسب، فلو أنني في ذلك الوقت لم تكن تساورني رغبة أخرى غير الشهوة، لما اكترثت يقيناً بأن أوقعها أرضاً وألوذ بالهرب، وعندئذ ما كنت لألطخ سيفي بدمه. ولكنني في اللحظة التي حدقت خلالها في محياها، في تلك الغابة المعتمة، قررت ألا أغادر المكان إلا بعد أن أقتله.

لكنني لم أرد اللجوء إلى وسائل غير منصفة لقتله، فبادرت بفك قيده، ودعوته إلى مبارزتي (الحبل الذي عثر عليه عند جذر شجرة الأرز هو الحبل الذي أوقعته في ذلك الوقت).

استبد به الغضب، فاستل سيفه الثقيل، وانقض عليَّ في سرعة هائلة، وبضراوة من دون أن ينبس ببنت كلمة. ولست بحاجة لإبلاغك بما انتهى إليه قتالنا. ثلاث وعشرون ضربة سيف.. تذكر هذا رجاء! فلا زلت متأثراً بهذه الحقيقة، فلم يقدر لأحد تحت الشمس أن يتبادل معي ضربات السيف ثلاثاً وعشرين مرة من قبل قط (ابتسامة مرحة).

عندما سقط، التفتُ إليها، خافضاً سيفي المضرج بالدم، لكنها لدهشتي الكبرى كانت قد اختفت. رحت أتساءل إلى أين هربت، بحثت عنها في أجمة أشجار الأرز، وأرهفت السمع، لكنني لم أسمع إلا أنين الرجل المحتضر.

ما إن شرعنا في المبارزة، ربما بادرت بالهرب عبر الغابة لطلب النجدة. وعندما فكرت في ذلك، وصلت إلى أن الأمر يعد مسألة حياة أو موت بالنسبة لي. هكذا سلبته سيفه وقوسه وسهامه، وانطلقت عدواً إلى الطريق الجبلي، وهناك عثرت على جوادها، وهو لا يزال يرعى في هدوء، وسيكون محض إهدار للكلمات أن أحدثك بالتفاصيل اللاحقة، ولكنني قبل أن أدخل المدينة كنت قد تخلصت بالفعل من السيف. هذا هو اعترافي. أعرف أن عنقي ستلتف حوله الاغلال على أي حال، فبادر بانزال أقصى عقوبة بي! (موقف حافل بالتحدي).

بعد أن أرغمني ذلك الرجل الذي يرتدي الكيمونو الأزرق على الاستسلام له، ضحك ساخراً، فيما هو ينظر إلى زوجي مشدود الوثاق. ما أشد الفزع الذي لابد أنه قد استبد بزوجي! ولكن أياً كان قدر استماتته في التخلص من قيوده، فإن كل ما كان يصل إليه هو المزيد من حز الحبل في لحمه. وعلى الرغم مني جريت متعثرة نحوه، أو بالأحرى حاولت الجري نحوه، لكن الرجل ضربني فأسقطني أرضاً. وفي تلك اللحظة على وجه الدقة، لمحت وهجاً يستعصي على الوصف في عيني زوجي، شيئاً يفوق الوصف.. عيناه تبعثان الرعدة فيّ حتى هذه اللحظة. تلك النظرة الفورية في عيني زوجي، الذي لم يكن بوسعه التفوه بكلمة، وشت لي بما في قلبه كله. لم يكن البريق الذي في عينيه غضباً ولا أسى.. وإنما كان بريقاً بارداً، نظرة مقت. لطمتني النظرة المرتسمة في عينيه بأكثر مما لطمتني ضربة اللص. صرخت على الرغم مني، وهويت فاقدة الوعي.

بعد قليل، استعدت وعيي، فألفيت الرجل ذا الكيمونو الحريري الأزرق وقد غاب عن العيان، ولم أر إلا زوجي وهو لا يزال مشدود الوثاق إلى جذر شجرة الأرز. نهضت بصعوبة من وسط وريقات أشجار الخيزران، وتطلعت إلى محياه، لكن التعبير المرتسم في عينيه كان على حاله تماماً، كما في السابق.

وراء الازدراء البارد في عينيه، كان هناك حقد، وخزي، وحزن، وغضب.. لست أدري كيف أعبر عما خالجني في ذلك الوقت. مضيت إلى زوجي بقدمين متخاذلتين.

قلت له: «تاكيجيرو، بما أن الأمور قد وصلت إلى هذا المنعطف، فليس بمقدوري العيش معك. لقد عقدت العزم على الموت.. ولكنك بدورك لابد من أن تموت. لقد رأيت عاري، وليس بوسعي أن أتركك على قيد الحياة كما أنت».

كان ذلك هو كل ما استطعت قوله، ومع هذا واصل التحديق فيّ بمقت وازدراء. انفطر قلبي، بحثت عن سيفه، لابد أن السارق قد أخذه، فلم تكن العين لتقع في الغابة على سيفه ولا على قوسه وسهامه. ولكن من حسن الحظ أن سيفي الصغير كان لايزال ملقى عند قدمي. رفعته فوق مستوى الرأس، ومن جديد قلت: «الآن أعطني حياتك وسوف أتبعك من فوري!».

عندما سمع هذه الكلمات، حرك شفتيه في عناء، ولما كان فمه محشوا بأوراق الشجر، فلم يكن بالوسع سماع صوته، بالطبع، على الإطلاق. لكنني بنظرة واحدة فهمت كلماته. ففي غمار احتقاره لي لم يقل لي إلا: «اقتليني!». لم أكن واعية ولا مجردة من الوعي، وقد طعنته بالسيف الصغير، فاخترق الكيمونو الأرجواني الفاتح إلى صدره.

لابد أنني قد أغمى عليَّ من جديد في ذلك الوقت، ففي الوقت الذي أفلحت خلاله في التطلع إلى أعلى، كان قد لفظ آخر أنفاسه بالفعل، وهو لايزال مشدود الوثاق. انسل شعاع من الشمس، غائصاً عبر غابة الأرز والخيزران، وتألق على وجهه الشاحب. ابتلعت نحيبي، وحررت الجثة من الحبل. و.. ولم يعد لدى من القوة ما يمكنني أن أحدثك بالاستعانة به بما صار إليه أمري. على أي حال لم تكن لديَّ القوة للانتحار، فقد طعنت زوجي بالسيف الصغير، وألقيت بنفسي في بحيرة عند سفح الجبل، وحاولت الانتحار بطرق عديدة، وإذ عجزت عن الانتحار، فإنني لا أزال أحيا مجللة بالعار (ابتسامة توحي بالشعور بالوحدة) ولابد أنني، وقد غدوت بلا قيمة، قد تخلى عني أكثر الرحماء رحمة. لقد قتلت زوجي، واغتصبني قاطع طريق. ماذا عساي أفعل؟ ما ذا عساي.. (تتخرط تدريجياً في نحيب عنيف).

قصة القتيل على نحو مارويت من خلال وسيط روحي

بعد أن انتهك قاطع الطريق زوجتي، جلس هناك، وشرع يحدثها بكلمات تدخل الطمأنينة على نفسها. لم يكن بمقدوري الحديث، بالطبع. فقد قيد جسمي كله بإحكام إلى جذر شجرة الأرز. لكنني في غضون ذلك رحت أغمز لها مرات عديدة، بقدر

صارخة مرات عديدة، كأنما قد جنت: «اقتله! ليس بمقدوري الزواج منك طالما هو على قيد الحياة. اقتله!» حتى الآن لاتزال هذه الكلمات تهدد بإلقائي في هوة من الظلمة لاقرار لها. هل صدر مثل هذا الشيء المقيت من فم بشري من قبل؟ هل لطمت مثل هذه الكلمات الملعونة أذنا بشرية مرة واحدة؟ حتى مرة واحدة مثل.. (صيحة سخرية مفاجئة) عند صدور هذه الكلمات شحب وجه قاطع الطريق نفسه. صرخت متشبثة بذراعيه: «اقتله!». حدَّق فيها بشدة، ولم يحر رداً. ولكنني لم أكد أفكر في رده حتى لطمها فأسقطها أرضاً فوق وريقات الخيزران (صيحة سخرية مجدداً) عقد ساعديه فوق صدره، وتطلع إليّ وقال: «ماذا عساك تفعل بها؟ تقتلها أم تنقذها؟ ما عليك إلا أن تومىء برأسك موافقاً. أتقتلها؟» من أجل هذه الكلمات وحدها أود أن تغتفر له جريمته.

بينما ترددت، أطلقت صرخة حادة، وانطلقت تعدو إلى أعماق الغابة، وفي التو مد قاطع الطريق يده ليمسك بها، لكنه لم يوفق حتى في الإمساك بردن ردائها.

بعد هربها، التقط سيفي وقوسي وسهامي. بضربة واحدة قطع الحبل الذي شد به وثائقي. وأذكر أنه مضى يغمغم: «مصيري سيحسم في المرة المقبلة» ثم اختفى من الغابة. بعد ذلك عم الصمت، سمعت أحدهم يبكي، فككت ما بقي من

قيودي، وأرهفت السمع، ولاحظت أن ذلك كان بكائي (صمت طويل).

رفعت جسمي المرهق عن جذر شجرة الأرز. تألق أمامي سيف زوجتي الصغير، الذي كان قد وقع منها، فالتقطته، وطعنت به صدري، ارتفعت كتلة دموية إلى حلقي، لكنني لم أحس بألمي. عندما برد صدري كان كل شيء ميتاً كالموتى في قبورهم. ياله من صمت عميق! لم تسمع نأمة من تغريد طائر واحد في السماء فوق تلك الغابة في صدع الجبال. تراقص نور وحيد فحسب على أشجار الأرز والجبال، غدا النور أكثر خفوتا تدريجياً حتى غابت أشجار الأرز والخيزران عن العيان. رقدت هنالك، وابتلعني صمت عميق.

ثم زحف أحدهم إليّ. حاولت أن أرى من عساه يكون، لكن الظلمة كانت قد مضت بالفعل تطبق عليَّ. أحدهم.. ذلك الأحد انتزع السيف الصغير برفق من صدري في يده الخفية. وفي الوقت نفسه تدفق الدم من جديد إلى فمي، وغصت للأبد في ظلمة الفراغ.

❖ كـانت «راشـومـون» أكـبـر بوابة في كيوتو، العاصمة القديمة لليابان. كان اتساعها ١٠٦ أقدام وعمقها ٢٦ قدماً، وثمة رافدة أفقية في أعلاها، ويشمخ جدارها الحجري بارتفاع ٧٥ قدماً. وقد شيدت هذه البوابة عام ٧٨٩ عندما نقل مقر عاصمة اليابان إلى كيوتو. ومع تردي وضع غربي كيوتو، غدت البوابة في وضعية مـهلهلة، وتصـدعت، وتداعت في مواضع كثيرة، وغدت ملاذاً للصوص وقطاع الطريق ومكاناً لإيداع الجثث، التي لا يطالب بها أحد.

راشومون

كان ذلك المساء بارداً. وقف خادم لأحد السامـوراي تحت بوابة راشومون، ينتظر انقطاع المطر.

لم يكن هناك أحد آخر تحت البوابة الرحبة. على العمود الغليظ، الذي أزيل اللك القرمزي الذي يكسوه هنا وهناك، جثم صرَّار. لما كانت راشومون تنتصب على جادة سوجاكو، فقد كان يمكن توقع أن تكون هناك قلة من أناس آخرين يعتمرون قبعات من نبات السُعادي أو أغطية رأس نبلاء في انتظار انحسار العاصفة المطيرة. ولكن لم يكن ثمة أحد في الجوار عدا هذا الرجل.

على امتداد السنوات القليلة الماضية، ضربت مدينة كيوتو سلاسل من النوائب، الزلازل، العواصف، والحرائق، وتعرضت للدمار إلى حد كبير. وتفيد الحوليات التاريخية العتيقة أن قطعاً

مهشمة من أيقونات بوذية وأشياء بوذية أخرى، تقشرت عنها طبقتها الذهبية أو الفضية، قد كومت على جوانب الطرقات لكي تباع حطباً للحريق. ولما كانت تلك هي حالة كيوتو، فإن إصلاح بوابة راشومون لم يكن أمراً وارداً. وانتهزت الثعالب وغيرها من الضواري فرصة هذا الدمار، فاتخذت لها أوكاراً وأوجاراً في أطلال البوابة، ووجد فيها اللصوص وقطاع الطرق بدورهم ملاذاً وماوى. وبالفعل أصبح أمراً مألوفاً جلب الجثث، التي لا يطلب أحد التصرف فيها، إلى هذه البوابة وتركها هناك. وبعد حلول الظلام غدت مخيفة للغاية، حتى أن أحداً ما كان ليجرؤ على الاقتراب منها.

حلقت أسراب من الغربان مقبلة من مكان ما. حلقت هذه الطيور الناعبة مدوّمة حول الراقدة الأفقية التي تعلو البوابة. عندما اكتست السماء بالحمرة في أعقاب المغيب، بدت كما لو كانت حبات سمسم نثرت عبر البوابة ولكن في ذلك اليوم، لم تكن العين لتقع على غراب واحد، ربما بسبب الوقت المتأخر. هنا وهناك تناثرت الفضلات البيضاء التي خلفتها الغربان على الدرج، الذي شرع في التداعي، وتخلله العشب النامي بوفرة. جلس الخادم، في كيمونو أزرق بال، على الدرجة السابعة والعليا، ومضى يرقب المطر شارداً. اجتذب انتباهه إلى بثرة كبيرة تثير ضيقه في خده الأيمن.

كما سبق القول، كان الخادم ينتظر انقطاع المطر. ولكنه لم يكن يدري ما الذي سيقوم به بعد أن يحدث هذا على وجه التحديد. كان من شأنه، بالطبع، أن يعود إلى دار سيده، لكنه طُرد من الخدمة قبل وقت قصير، فقد مضى ازدهار المدينة ينحسر، وقد صرفه من الخدمة سيده بعد عمل استمر سنوات عديدة بسبب تأثيرات هذا الانحسار. هكذا، فإنه إذ حاصره المطر، فقد أحس بالضياع، ولم يدر إلى أين يمضي. وكانت للطقس صلة كبيرة بحالته المزاجية التي يعمها الاكتئاب، فقد بدا أن من غير المحتمل أن السماء ستقلع، وغرق في أفكار حول الكيفية التي سيكسب بها عيشه في الغد، وهي أفكار عاجزة وبعيدة عن التماسك، تأتي احتجاجاً على قدر لا يرحم. ومضى بلا هدف يصغي إلى دمدمة المطر في غمار سقوطه على جادة سوجاكو.

ازداد عنفوان المطر الذي غمر بوابة راشومون، وانهمر بصوت يشبه صوت الرشق أو الرجم الذي يمكن أن يسمع من بعيد. تطلع الخادم إلى أعلى، فلمح سحابة سوداء مترامية تخوزق نفسها على أطراف القرميدات الناتئة من سقف البوابة.

لم يكن أمامه إلا خياراً محدوداً فيما يتعلق بالوسائل التي سيعتمدها، سواء أكانت طيبة أم سيئة، بسبب ظروفه التي يسودها العجز، فلو أنه اختار وسائل شريفة، لتضور جوعاً بلا

شك حتى الموت بجوار السور أو في بالوعة سوجاكو، ولسوف يتم جلبه إلى هذه البوابة، وسيلقي به بعيداً، مثلما كلب ضال. ولو أنه قرر اللجوء إلى السرقة.. خلص ذهنه، بعد القيام بالمسيرة ذاتها مراراً وتكراراً، إلى أنه في نهاية المطاف سيصبح لصاً.

لكن الشكوك عاودته مرات عدة، وعلى الرغم من أنه حسم أمره، ووصل إلى أنه ما من خيار أمامه، إلا أنه كان لايزال عاجزاً عن استجماع ما يكفي من الشجاعة لتبرير الخلاصة التي وصل إليها، وقوامها أنه من المحتم أن يصبح لصاً.

بعد نوبة من العطس بصوت عال، انبعث واقفاً على مهل، فقد جعله برد كيوتو الليلي القارس يحن إلى دفء مجمرة. انبعث زفيف الريح عالياً في الغسق عبر أعمدة البوابة، وكان صرار الليل الذي جثم على العمود المطلي باللك القرمزي قد انصرف بالفعل.

أحنى رقبته، ومضى يتطلع في أرجاء البوابة، وجذب عالياً كتفي الكيمونو الأزرق الذي كان يرتديه فوق ملابسه الداخلية المهترئة. قرر أن يمضي الليل هناك، إذا استطاع العثور على ركن معزول محمي من الريح والمطر. وعثر على درج عريض مطلي باللك يفضي إلى برج ينهض فوق البوابة. لن يكون هناك أحد، إلا الموتى، إن كان ثمة أحد على الإطلاق. وهكذا وضع قدمه

على أدنى درجة في الدرج محاذراً ألا ينزلق السيف المتدلي إلى جانبه من غمده.

بعد ثوان، في منتصف الدرج، لمح حركة في الأعلى، كتم أنفاسه، وجثم مثلما قطة في منتصف الدرج العريض المفضي إلى البرج، ومضى يرقب وينتظر. التمع على نحو خافت ضوء ينسل من الجزء العلوي من البرج على خده الأيمن، وهو الخد ذو البثرة الحمراء، المتقيحة، الظاهرة تحت لحيته النامية على نحو قصير وخشن. كان قد توقع ألا يضم البرج إلا الموتى، ولكنه لم يصعد إلا درجات محدودة قبل أن يلاحظ ناراً في الأعلى يتحرك أحدهم حولها. رأى ضوءاً كابياً، مصفراً، يومض ثم يخبو، جعل نسيج العنكبوت المتدلي من السقف يتوهج على نحو شبحي. أي نوع من الأشخاص ذلك الذي يشعل ضوءاً في راشومون.. وفي عاصفة؟ أفزعه المجهول والشر.

زحف الخادم في هدوء السحلية إلى أعلى الدرج، جثم على يديه وقدميه، مد عنقه بقدر ما يستطيع، وتطلع في حذر إلى داخل البرج.

مثلما روجت الشائعات، وجد العديد من الجثث الملقاة بلا اكتراث على الأرض. ولما كان الوهج خافتاً، فقد عجز عن معرفة عددها، ولم يستطع إلا أن يلمح أن بعضها عار، وبعضها لم يسلب الملابس. كان بعضها جثثاً لنساء ملقاة على الأرض بأفواه

فاغرة وأذرع متهدلة، لاتزيد مؤشرات الحياة فيها عما يوجد في دمى صلصالية. ويساور المرء الشك في أنهن قد دبت فيهن الحياة ذات يوم،و أنهن قد بقين صامتات على هذا النحو دوماً. وبرزت أكتافهن ونهودهن وجذوعهن في الضوء الكابي، واختفت أجزاء أخرى في الظل، وأرغمته الرائحة الكريهة المنبعثة من هذه الجثث المتحللة على أن يدفع بيده نحو أنفه.

في اللحظة التالية، هوت يده إلى جانبه، وراح يحدق فيما أمامه. لمح شكلاً مخيفاً منحنياً على جثة، وبدا هذا الشكل كما لو كان عجوزاً كئيبة، شمطاء، لها مظهر الكاهنة، أمسكت بيدها اليمنى شعلة متخذة من خشب الصنوبر، وعكفت على النظر إلى محيا جثة ذات شعر أسود مسترسل.

تملكه الفزع بأكثر مما استبد به الفضول، بل إنه نسي التنفس لبعض الوقت، وأحس بشعر رأسه وجسمه يقف رعباً. وفيما هو يرقب ما أمامه مرعوباً، ثبتت العجوز المشعل بين لوحين من ألواح الأرضية، ووضعت يديها على رأس الجثة، وشرعت في انتزاع الشعر الطويل شعرة إثر أخرى، مثلما تنتزع قردة القمل من صغيرها، ومع حركة يديها انتزع الشعر في يسر.

مع نزع الشعر، انحسر الخوف من فؤاده، وتصاعد مقته للعجوز، حتى تجاوز حدود الكره والمقت، وغدا عداء جارفاً للشر كله. ولو أن أحداً طرح في هذه اللحظة مسألة ما إذا كان

سيتضور جوعاً حتى الموت أم سيصبح لصاً - وهي المسألة التي خطرت بباله قبل قليل - لما تردد في اختيار الموت، فقد توهج مقته للشر متصاعداً، مثلما تلك القطعة من خشب الصنوبر التي وضعتها الحيزبون بين لوحي الأرضية.

لم يدر السر في أنها راحت تنزع الشعر من الموتى، وبناء على هذا لم يدر ما إذا كان موقفها جيداً أم سيئاً. ولكن من منظوره فإن نزع شعر الموتى في بوابة راشومون في هذه الليلة العاصفة يعد جريمة لا تغتفر. ولم يخطر بباله أنه قبل قليل كان يفكر في أن يصبح لصاً.

ثم استعاد القوة إلى ساقيه، وانبعث واقفاً من الدرج، وخطا خطوات واسعة، وقبضته على سيفه، ليقف أمام المخلوقة العجوز مباشرة. التفتت الحيزبون، والرعب ملء عينيها، وانبعثت واقفة وقد أخذتها الرعدة. وللحظة قصيرة تجمدت في موضعها هنالك، ثم اندفعت باتجاه الدرج صارخة.

«أيتها التعسة! إلى أين تذهبين؟». هتف بها، وقطع الطريق على الحيزبون المرتجفة، التي حاولت الإفلات منه. وعلى الرغم من ذلك، حاولت أن تشق طريقها بمخالبها، فدفعها إلى الوراء ليمنعها من ذلك.. تصارعا، سقطا وسط الجثث، وتماسكا بالأيدي هنالك، ولم يكن هناك شك حول نتيجة الصراع، ففي غضون لحظة أمسك بذراعها، ولواها، وأجبرها على أن تجثم

على الأرض. كانت ذراعها جلداً على عظم، ولايزيد ما عليهما من لحم عما هو موجود على قائمتي دجاجة. ولم تكد تجثم على الأرض، حتى استل سيفه، ودفع بالنصل الفضي الأبيض أمام أنفها ذاته. لزمت الصمت، ارتجفت كما لو أصابتها نوبة، واتسعت عيناها للغاية بحيث أوشكتا على الخروج من محجريهما، وتحول تنفسها إلى لهاث خشن. لقد أصبحت حياة هذه التعسة في يديه الآن. وهدأت هذه الخاطرة غضبه المحتدم، وجلبت كبرياء ورضىً يغمرهما الهدوء. تطلع إليها، وقال في صوت أكثر هدوءاً إلى حد ما:

- انظري ها هنا! إني لست ضابطا تابعاً لمفوض الشرطة الأعلى، وإنما أنا غريب تصادف مروري بهذه البوابة. لن أقيدك أو أفعل شيئاً ضدك، لكنك لابد لك من إبلاغي بما تفعلينه هنا.

عندئذ ازدادت عينا العجوز اتساعاً، وحدقت في محياه بعينين حمراوين حادتين كعيني طائر من طيور القنص. حركت شفتيها، اللتين كانتا مجعدتين تجعدات تنساب إلى أنفها، كأنما كانت تمضغ شيئاً. وتحركت تفاحة آدم المدببة في عنقها الناحل، ثم انبعث من زورها صوت يشبه نعيب الغربان: «إنني أنزع الشعر.. انتزعه.. لأعد شعراً مستعاراً».

أبعد ردها كل ماهو مجهول عن لقائهما، وجلب شعوراً بخيبة الأمل. فجأة، غدت مجرد عجوز ترتجف عند قدميه. لم تعد

غولاً، وإنما حيزبون تصنع شعراً مستعاراً من شعر الموتى، تبيعه لقاء لقيمات. هيمن عليه ازدراء بارد، انساب الخوف متسرباً من فؤاده، وولجته كراهيته السابقة. ولابد أن المرأة قد أحست بهذه المشاعر. وغمغمت هذه الحيزبون التي كانت لاتزال تتشبث بالشعر الذي انتزعته من الجثة، بهذه الكلمات بصوتها الخشن المتكسر: «ربما يبدو إعداد الشعر المستعار من شعر الموتى شراً عظيماً بالنسبة لك، ولكن هؤلاء الموجودين هنا لا يستحقون ما هو أفضل من ذلك. هذه المرأة، التي كنت أنتزع شعرها الأسود الجميل، اعتادت أن تبيع لحم الثعابين المقطع والمجفف في ثكنة الحراس، قائلة إنه سمك مجفف، ولو أنها لم تمت من جراء الوباء لكانت تبيعه الآن. وقد أحب الحراس الشراء منها، واعتادوا أن يقولوا إن سمكها طيب المذاق. ولا يمكن لما فعلته أن يكون غلطة، لأنها لو لم تفعله لتضورت جوعاً حتى الموت. لم يكن هناك خيار آخر، ولو أنها عرفت أنني مضطرة للقيام بهذا لكي أعيش لما اهتمت بالأمر».

أعاد سيفه إلى غمده، وأصغى متأملاً لما تقوله، وقد استقرت يسراه على مقبض سيفه. تحسس بيمناه البثرة الكبيرة في خده. فيما هو يصغي ولدت في فؤاده شجاعة معينة، الشجاعة التي لم تواته عندما جلس تحت البوابة قبل قليل. راحت قوة غريبة تدفعه في الاتجاه المعاكس للشجاعة التي

سيطرت عليه عندما أمسك بالعجوز. لم يعد يتساءل عما إذا كان يتعين عليه التضور جوعاً حتى الموت أم يصبح لصاً، فقد كان التضور بعيداً عن ذهنه للغاية حتى أنه كان آخر ما يخطر بباله.

تساءل ساخراً عندما فرغت من حديثها: «هل أنت واثقة؟» نزع يده اليمنى عن بثرته، انحنى إلى الأمام، وأمسك بعنق المرأة، وقال بحدة: «إذن فلا بأس لو أنني سطوت عليك. لسوف أتضور جوعاً إن لم أفعل ذلك».

نزع ثيابها عن جسمها، ركلها بخشونة فطوَّح بها على الجثث، فيما كانت تتخبط وتحاول التشبث بساقه. بعد قطع خمس خطوات غدا عند قمة الدرج. استقرت الملابس الصفراء التي سلبها تحت ذراعه. وفي طرفة عين اندفع هابطاً الدرج إلى هوة الليل. دوى رعد خطواته في غمار الهبوط في البرج الخاوي، ثم ساد السكون.

بعد وقت قصير، رفعت الحيزبون جسمها عن الجثث. مضت تتذمر وتئن، وزحفت إلى قمة الدرج قرب المشعل الذي مضى نوره يخبو ويتوهج، وعبر الشعر الأشيب الذي غمر وجهها تطلعت إلى أسفل الدرج في ضوء المشعل.

وراء ذلك لم يكن ثمة إلا الظلام.. الجاهل، والمجهول.

عميدة إليام .....

ربما حدثت هذه القصة قبل ألف ومئة عام خلت، فلا أهمية للوقت الذي حدثت فيه على وجه الدقة، وكل ما يتعين على القارىء الإلمام به هو أن الماضي البعيد للعهد الهاييني يشكل خلفيتها. في تلك الأيام الخوالي، كان يعيش في كيوتو ساموراي بعينه، يعمل في خدمة نائب الإمبراطور فوجيوارا موتوتسوني، ولسوف أورد اسمه، ولكنه لسوء الطالع ليس مسجلاً في الحوليات القديمة. وربما كان رجلاً عادياً للغاية بحيث أنه لم يكن جديراً بأن يسجل اسمه في إحدى تلك الحوليات، فمن الجلي أن كتابها لم يهتموا كثيراً بحياة غمار الناس أو قصصهم. وهم يختلفون في هذا الصدد إلى حد كبير عن كتاب اليوم المنتمين إلى المدرسة الطبيعية. غير أن كتاب العصر الهاييني لم يكونوا أناساً مترفين على نحو ما يمكن أن يتوقعه المرء. على أي

حال، فقد كان في خدمة فوجيوارا موتوتسوني مسئول ينتمي للدرجة الخامسة من درجات الخدمة في البلاط، هو بطل هذه القصة، وفي تلك الأيام كان المسئول المنتمي للطبقة الخامسة يعد موظفاً متواضع المرتبة، والكلمة اليابانية المقابلة لتلك الدرجة هي «جوي». ولذا فإننا سنطلق عليه في هذه القصة اسم «جوي».

كان جوي رجلاً عادي المظهر والهيئة، وجعلت وجنتاه الناحلتان ذقنه تبدو طويلة على نحو غير مألوف. وشفتاه.. لو أننا أتينا على ذكر كل ملمح من ملامحه، لما فرغنا من الحديث. خلاصة القول إنه كان عادياً إلى حد بعيد، وليس في مظهره ما يميزه.

ما من أحد يعرف كيف وصل إلى الالتحاق بخدمة نائب الإمبراطور. ومع ذلك، فإن من المؤكد أنه قد مضى في أداء مهام عمله اليومي على امتداد فترة طويلة، في ردائه الحريري الذي حال لونه وغطاء رأسه المتهدل. وكان من المتعذر في ضوء سلوكه وملبسه الذي لايكترث به تصديق أنه كان شاباً في يوم من الأيام، فقد تجاوز الأربعين من عمره، وأعطى وجهه الانطباع بأنه منذ ميلاده كان له أنفه المحمر الموحي بالإصابة بالبرد وشاربه غير المشذب المعرض للريح التي تهب على جادة سوجاكو. وقد اعتقد الجميع من نائب الإمبراطور حتى العامة ذلك، ولم يساورهم شك بشأنه.

حال، فقد كان في خدمة فوجيوارا موتوتسوني مسئول ينتمي للدرجة الخامسة من درجات الخدمة في البلاط، هو بطل هذه القصة، وفي تلك الأيام كان المسئول المنتمي للطبقة الخامسة يعد موظفاً متواضع المرتبة، والكلمة اليابانية المقابلة لتلك الدرجة هي «جوي». ولذا فإننا سنطلق عليه في هذه القصة اسم «جوي».

كان جوي رجلاً عادي المظهر والهيئة، وجعلت وجنتاه الناحلتان ذقنه تبدو طويلة على نحو غير مألوف. وشفتاه.. لو أننا أتينا على ذكر كل ملمح من ملامحه، لما فرغنا من الحديث. خلاصة القول إنه كان عادياً إلى حد بعيد، وليس في مظهره ما يميزه.

ما من أحد يعرف كيف وصل إلى الالتحاق بخدمة نائب الإمبراطور. ومع ذلك، فإن من المؤكد أنه قد مضى في أداء مهام عمله اليومي على امتداد فترة طويلة، في ردائه الحريري الذي حال لونه وغطاء رأسه المتهدل. وكان من المتعذر في ضوء سلوكه وملبسه الذي لايكترث به تصديق أنه كان شاباً في يوم من الأيام، فقد تجاوز الأربعين من عمره، وأعطى وجهه الانطباع بأنه منذ ميلاده كان له أنفه المحمر الموحي بالإصابة بالبرد وشاربه غير المشذب المعرض للريح التي تهب على جادة سوجاكو. وقد اعتقد الجميع من نائب الإمبراطور حتى العامة ذلك، ولم يساورهم شك بشأنه.

يمكنكم في يسر تصور نوعية المعاملة التي لقيها جوي ممن يحيطون به، حيث لم يكترث به زملاؤه من الساموراي على الإطلاق. وكان مرؤوسوه، الذين يحملون درجة من درجات الخدمة في البلاط أو لا يحملونها على السواء، وهم في مجملهم حوالي عشرين شخصاً، لا يبالون به كذلك على نحو مدهش. وعندما كان يفترض أن يوجه لهم التعليمات، كانوا يتجاهلونه ويواصلون حديثهم وثرثرتهم المفعمين بالتكاسل والاسترخاء، فوجوده لم يكن يدخل مجال رؤيتهم بأكثر مما يدخله الهواء نفسه. ولم يسبب ظهوره تموج اضطراب يفوق ذلك الذي تحدثه قطرة في بحر اليابان. وكان تأثير عجز هذا الرجل ملموساً في قاعة الساموراي، حيث كان الحاجب وكبير الساموراي ورؤساؤه يتجاهلونه، ودرجوا على أن يصدروا له كل أوامرهم بالإشارة.

ليس من قبيل الصدفة أن للإنسان صوتاً، والكلام بين البشر لم ينجم عن تطور بسيط، ولذا فإنهم في بعض الأحيان لم يوفقوا في جعله يتفهم مرادهم، وعندئذ كانوا يبدون كما لو أنهم يرجعون فشلهم لنقص في قدرته على الفهم. وعندما كانوا يعجزون عن إيضاح مقصدهم، كانوا ينظرون إليه شزراً، كأنما تلك غلطته، ثم بعد التطلع إليه من قمة رأسه التي يعلوها غطاء التوى ففقد شكله حتى أخمص قدميه اللتين دسهما في خفين

باليين، يديرون ظهورهم فجأة، ويتجاهلونه. على الرغم من ذلك كله، فإن جوي لم يستبد به الغضب ولا الضيق قط، فقد كان رجلاً منكمشاً ومفتقراً للهمة بحيث لم يكن يبالي بكل ما يحل بساحته من المظالم.

اعتقد زملاؤه من الساموراي أن من الأمور الطريفة للغاية جعله موضع تندرهم ومحط نكاتهم، أبدى الرجال الأكبر سناً باستمرار ملاحظات عابرة حول مظهره الشخصي، الأمر الذي جعل من هم أصغر سناً يقدحون زناد فكرهم في التندر على جوي، الذي لا حول له ولا قوة. وفي حضوره لم تفرغ لهم جعبة، وهم يدلون بتعليقات ساخرة حول أنفه، شاربه، غطاء رأسه، وثوبه الحريري. فضلاً عن ذلك، فإنهم غالباً ما كانوا يتحدثون عن زوجته ذات الشفة العليا الشرماء، التي انفصل عنها منذ خمس سنوات أو ست، والكاهن البوذي الذي تردد أنه على علاقة حميمة بها. ولم يقتصر الأمر على ذلك، وإنما كانوا بين الحين والآخر يدبرون له المقالب، ومن المستحيل حصرها جميعها. ولو أنني ذكرت أنهم شربوا الساكي الذي كان موجوداً في مطريته المتخذة من الخيزران، ثم بالوا فيها، فإن بوسعكم تخيل نوعية المقالب التي دبروها له.

لكن جوي تجاهل هذا الهزء تماماً. هذا هو على الأقل ما كان بادياً للعيان. وأياً كان ما قاله الآخرون عنه، فإن التعبير

المرتسم على محياه ما كان ليتغير. كان يمسد شاربه النحيل في صمت، ويمضي قدماً في أداء مهامه اليومية، من دون أن يبدو عليه من الحرج ما يتجاوز بطة ألقيت في بركة ماء. وعندما كان رفاقه يمضون إلى الحدود القصوى، فيثبتون قصاصة من ورق في العقدة العليا لقبعته، أو يربطون خفاً من القش في غمد سيفه، كان يحتج في حزن قائلاً: «لم فعلتم ذلك؟» وكان التعبير المرتسم على محياه يجعلك تحار فيما إذا كان يبتسم أم يبكي. وكل من قدر له أن يرى محياه الذي لا يعكس شراً ولا أذى أو يسمع صوته الخفيض الذي يشبه الصرير، كان يساوره الشعور بتعاطف عابر، ويقول لنفسه: «ليس جوي هو وحده الذي نعذبه ونضايقه. بعضهم - كثيرون آخرون لا نعرفهم - يتحدثون عن قلوبنا المتحجرة من خلال محياه وصوته». لكن قلة محدودة للغاية هي التي احتفظت بهذا التعاطف لمدة طويلة. ومن بين من شعروا بالأسف عليه حقاً ساموراي بلا درجة في البلاط، قدم من مقاطعة تامبا، وكان شاباً بدأ شاربه في الظهور. وبالطبع، فقد انضم في البداية إلى الآخرين في السخرية من جوي ذي الأنف الأحمر من دون سبب يذكر. ولكنه تصادف أن سمع ذات يوم تساؤل جوي: «لم فعلتم ذلك؟»، فانغرست الكلمات في ذهنه. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، نظر إلى جوي في ضوء مختلف، لأنه رأى رجلاً منتحباً، استبدت به حياة قاسية، يختلس النظر من

وجه شاحب، بليد، هو وجه جوي الذي يعاني من سوء التغذية. ولم يستطع هذا الساموراي التفكير في جوي أبداً من دون التأثر باحتجاجه المفعم بالاتهام على حقائق الحياة الواقعية القاسية. وفي الوقت نفسه فإن أنف جوي الأحمر الذي نال منه الصقيع وشاربه الذي يمكن عد شعراته على أصابع المرء بدا أنه على نحو ما يمنحه لمسة غراء.

لكن هذا الساموراي الشاب كان استثناء. وبغض النظر عن قلة محدودة من مثل هذه النوعية من الناس، فقد تعين على جوي أن يواصل عيش حياة كلب يلقى الازدراء من كل من حوله. وفي المقام الأول لم تكن لديه ملابس جديرة بأن تحمل هذا الاسم. فلم يكن لديه إلا معطف أزرق قاتم وعباءة ذات ثنيات من اللون نفسه. لكن هذه الملابس حال لونها، وغدا ما لا يمكن وصفه لا بأنه أزرق ولا بأنه نيلي. وفيما يتعلق بعباءته فقد كانت بالية بصورة متفاقمة. أما ساقاه الناحلتان، اللتان لم يكن يكسوهما سروال تحتاني، فقد كانتا تحت عباءته في وضع ليس أحسن حالاً من قائمتي ثور هزيل يجر عربة نبيل فقير من نبلاء البلاط. وكان سيفه مما يستعصي على الوصف، والحمائل المعدنية مشكوك في أمرها، وقد شرع طلاء اللك على المقبض ينصل ويغيب عن العيان. وقد اعتاد جوي ذو الأنف الأحمر السير بخطى قصيرة، وكتفاه المتهدلتان أكثر انحناء تحت السماء

الباردة، وأن يلقى نظرات متطلعة يمنة ويسرة، وهكذا فقد كان من الطبيعي أن يسخر منه حتى الباعة الذين يعبرون الطريق، ويمكن في هذا الصدد إيراد المثال التالي.

ذات يوم، بينما كان في طريقه من سانجومون إلى شينسين - إذ، رأى جمعاً من الأطفال بجانب الطريق، وقد حسب أنهم يلعبون بقطع الخشب الدوارة، فمضى يرقبهم، ووجد أنهم ينهالون ضرباً بالعصى على كلب ضال، مشعث الشعر، أمسكوه بحبل يلتف حول رقبته. وقد كان جوي المنطوي على الدوام تقريباً أكثر انطواء من أن يترجم ما يشعر به حقاً إلى حركة. ولكنه في هذه الحالة، وبما أنهم كانوا صغاراً، فقد استطاع أن يستجمع بعض الشجاعة.

قال مبتسماً ابتسامة عريضة بقدر الإمكان، وهو يربت على كتف الصبي الذي بدا الأكبر سناً في الجميع: «دعوه، رجاء! فلو أنكم ضربتم هذا الكلب لألحقتم الأذى به!».

تطلع إليه الصبي، ورفع ناظريه نحوه، وحدق فيه بازدراء.

ودمدم قائلاً: «عليك بنفسك!»، خطا متراجعاً إلى الوراء خطوة، ونتأ بشفتيه المتباهيتين، وصاح: «ماذا؟ أنت أيها التعس الأحمر الأنف!».

أحس جوي كما لو أن هذه الكلمات قد صفعته على وجهه.

ولم يكن مـــرد ذلك إلى أنه قـد أحس بالإهانة من حـديث الصبي الحافل بالازدراء، وإنما ساوره الشعور بالبؤس لأنه ألحق الخزي بنفسه، وجلب العار عليها بعبارة لم تكن هناك ضرورة لقولها. أخفى خزيه بابتسامة مريرة، وواصل سيرة نحو شينسين - في حين، قطب الصغار وراءه وجوههم، ودفعوا بألسنتهم خارج أفواههم تجاهه. ولم يرهم، بالطبع. ولو أنه رآهم لما أحدث ذلك فارقاً كبيراً بالنسبة لجوي، الذي ما كان ليكترث كثيراً.

هل كان بطل هذه القصة رجلاً ولد لا لشيء إلا ليحتقر ويهان ولا هدف له في الحـياة؟ لا، ليس الأمـر كـذلك. على امتـداد السنوات الخمس أو الست الماضية، استبد به توق غير عادي إلى عصيدة إليام. وعصيدة إليام هي عصيدة تعد بغلي شرائح من بطاطا إليام الحلوة في حساء نبات المرنطة الحلوة. وكان ينظر إليها في تلك الأيام باعتبارها طعاماً شهياً للغاية، حتى على مائدة طعام نائب الإمبراطور. ووفقاً لهذا فإن الموظفين المتواضعين من أمثال جوي كان بمقدورهم تذوقها مرة واحدة في العام، عندما تتم دعوتهم كمدعوين غير معتادين إلى قصر نائب الإمبراطور. وفي مثل هذه المناسبة لم يكن بمقدورهم أن يتناولوا منها ما يزيد على ما يكفي بالكاد لترطيب شفاههم. هكذا كانت رغبته التي طالما تاق لتلبيتها أن يشبع شوقه لتذوق عصيدة إليام. وبالطبع، لم يبح بأمر رغبته تلك لأحد. فهو نفسه ربما لم يكن مدركاً بوضوح

أن تلك كانت أمنية عمره. ولكن في حقيقة الأمر لن يكون من قبيل التزيد القول إنه قد عاش لهذا الهدف. ففي بعض الأحيان قد يكرس إنسان حياته لرغبة قد لا يكون على يقين من أنه سيحققها ذات يوم. وفي نهاية المطاف فإن أولئك الذين يسخرون من هذه الحماقة هم مجرد متفرجين على الحياة.

في الثاني من يناير من عام معين، دعي المدعوون غير المعتادين إلى مأدبة في قصر فوجيوارا موتوتسوني (كانت هذه المأدبة يقيمها نائب الإمبراطور، حيث يدعو الوزراء ونبلاء البلاط الآخرين، وكانت على المستوى نفسه الذي تقام عليه المأدبة الكبرى في بلاط نينومايا في اليوم ذاته) وشارك جوي والساموراي الآخرون في المأدبة، ففي ذلك العهد لم يكن قد جرى بعد العمل بالعرف الذي يقضي بتقسيم المدعوين حسب درجتهم في البلاط، وهكذا اعتاد كل الأتباع التجمع في قاعة واحدة والاستمتاع بالمأدبة عينها. وكانوا في المآدب التي أقيمت في تلك الأيام الخوالي يقدمون تشكيلة كبيرة من أطباق الطعام والحلوى، التي تعد قلة منها مما يخاطب بصورة خاصة أبناء أيامنا هذه، فهناك كعك الأرز الدبق، كعك الأرز المقلي والمحلى، آذان البحر الرخوية المطهوة على البخار، الدجاج المجفف، سمك نهر أوجي المحلى، سمك فرخ نهر أومي، سمك البجروس المتبل، السلمون المسلوق، الأخطبوط المشوي، جراد البحر الكبير،

اليوسفي الكبير والصغير، المندرين، ثمار البرسيمون المجففة في الأسياخ، وغيرها كثير. وبين هذه الأصناف كانت عصيدة إليام التي تشكل بيت القصيد. ولكن هذا العام، حيث إنه كان هناك عدد كبير من المدعوين، فإن نصيبه من عصيدة إليام كان في ضوء ذلك صغيراً. وقد كان طعم عصيدة إليام شهياً أكثر من المعتاد، على الرغم من أن ذلك ربما كان من وحي خياله. وبعد أن فرغ منها، كان ناظراه مايزالان مثبتين على الوعاء الفارغ. مسح القطرات عن شاربه الرفيع، وقال محدثاً شخصاً إلى جانبه: «أتساءل عما إذا كان سيقدر لي أبداً أن أتناول عصيدة إليام حتى الامتلاء».

ضحك أحدهم قائلاً: «إنه يقول إنه لم ينل ما فيه الكفاية من عصيدة إليام». كان صوتاً جهورياً، متشامخاً، يليق بمحارب ذلك الذي دوَّي بهذه الكلمات. رفع جوي رأسه، وتطلع منكمشاً نحو المتحدث. كان الصوت صادراً عن فوجيوارا توشيهيتو، نجل توكيناجا، الذي كان وزيراً للمالية في ظل نيابة موتوتسوني عن الإمبراطور. كان عملاقاً وافر البدن، قوياً، عريض المنكبين، وقد بدا أنه قد أوغل المسير في طريقه إلى السكر، بفعل أقداح الساكي قاتم اللون العديدة التي شربها خلال المأدبة.

واصل توشيهيتو حديثه بصوت يختلط فيه الإشفاق بالازدراء، حينما رأى جوي يرفع رأسه: «إنني آسف من أجلك،

لسوف تنال ما تريده من عصيدة إليام حتى الامتلاء، إذا رغبت في ذلك».

ليس من شأن كلب تعرض للمضايقة بصفة مستمرة أن يثب طواعية على قطعة لحم ألقيت له. نقل جوي، وقد ارتسم التعبير المألوف على محياه الذي يجعلك تتساءل عما إذا كان يبتسم أم يبكي، ناظريه من وجه توشيهيتو إلى وعائه الفارغ، متأملاً كلاً منهما على التوالي.

تساءل توشيهيتو: «ألا ترغب في ذلك؟».

ظل جوي صامتاً.

أحس بأن عيون الجمع كلهّا منصبة عليه. توقف تحوله إلى مثار لسخريتهم على الكيفية التي سيرد بها. أياً كان رده فسوف يسخرون منه، هكذا مضى يحدث نفسه،ولذا فقد تردد في الإجابة. ولو أن الآخر لم يرعد نافذ الصبر قائلاً: «إذا لم تكن ترغب في ذلك فلن أكرر دعوتي» لأكتفي بمواصلة الانتقال بناظريه بين وعائه وتوشيهيتو.

عندما سمع جوي سؤال توشيهيتو المدوي، رد في نهاية المطاف قائلاً: «سأكون ممتناً أشد الامتنان لك يا سيدي!».

انفجر الجمع، الذي أصغى إلى هذه المسرحية الجانبية التي ضمت توشيهيتو وجوي، في عاصفة من الضحك. هتف أحدهم

مقلداً جوي على نحو ساخر: «سأكون ممتناً أشد الامتنان لك يا سيدي!» اكتسح الضحك العاصف الجمع، وتقافزت أغطية الرأس الصلبة واللدنة، كأمواج تمضي فوق الأطباق الصفراء، الزرقاء، القرمزية، والمتعددة الألوان الموضوعة أمامهم. وفي المقام الأول كان توشيهيتو هو الأكثر إغراقاً في الضحك.

كبح جماح ضحكه وقال: «إذن فسوف أدعوك عما قريب» كان فيما يبدو قد أوشك على أن يغص بالخمر. تساءل مؤكداً: «أواثق أنت؟» «أجل سأكون ممتناً أشد الامتنان، ياسيدي!». قالها جوي متلعثماً من جديد، وقد احمر خجلاً. وبالطبع، ضحك الجمع بأسره من جديد. وضحك توشيهيتو نفسه، الذي كان قد طرح السؤال بقوة ليجعل جوي يكرر هذه الكلمات بعينها مجدداً، بصوت أعلى وبشدة، واهتزت كتفاه العريضتان، كأنما بدا الأمر له أكثر طرافة. فهذا النبيل بالبلاط القادم من الشمال ببساطة الريفي لا يعرف إلا سبيلين للمضي في الحياة، هما الشراب والضحك.

في نهاية المطاف، تحول محور الحديث إلى شيء آخر، ربما لأن الآخرين كرهوا أن يتركز انتباههم على جوي ذي الأنف الأحمر، على الرغم من كل الطرافة النابعة من السخرية منه. وعلى أي حال فقد انتقل مناط الحديث من موضوع إلى آخر. وبحلول الوقت الذي لم يبق فيه إلا القليل من الطعام والشراب، كان اهتمام الجمع قد انصب على قصة ساموراي غر حاول

امتطاء جواد بينما كان يضع ساقيه كلتيهما في جانب واحد من سروال ركوب الخيل. أصغى الجمع لما يقال باستثناء جوي، فقد ظل منطوياً لايدلي بتعقيب كائناً ما كان، حيث شغلت عصيدة إليام خاطره، بل إنه لم يحتس قدحاً من الساكي. وتراخت يداه كلتاهما في حجره، وقد بدا في خفر فتاة في لقاء مع زوج منتظر، وتضرج خجلاً حتى جذور شعره الذي امتدت إليه يد المشيب، وراح يتطلع إلى قدحه الخاوي المطلي باللك، ويبتسم ابتسامة بلهاء.

ذات صباح، بعد أيام قلائل، دعا توشيهيتو جوي لمصاحبته في رحلة على ظهور الجياد إلى نبع حار قرب هيجاشياما. وحمل جوي الدعوة على محمل الجد، وأسعده أن يقبل هذا العرض، ولما كان لم يمض إلى الحمام منذ وقت طويل، فقد مضى يهرش جسمه من الرأس إلى القدم، وسيكون هبة من الله أن يتاح له بالإضافة إلى التهام عصيدة إليام أن يأخذ حماماً. وهكذا فقد امتطى صهوة الجواد الكستنائي الذي كان توشيهيتو قد أحضره.

سرعان ما انطلق توشيهيتو وجوي على جواديهما نحو أواتاجوتشي عبر طريق يمضي على ضفة نهر كامو. رسم توشيهيتو بشاربه الأسود وخصلات شعره الجانبية البديعة، وقد ارتدى ثياب صيد لازوردية قاتمة، وتقلد سيفاً طويلاً - رسم

صورة بديعة لمحارب. أما جوي في ردائه الحريري المهلهل الناصل وثوبين تحتيين ذوي بطانتين رفيعتين وقد لف زناره كيفما اتفق حول خصره، وغطى المخاط المتسرب من أنفه شفته العليا، فقد بدا المقابل البائس لتوشيهيتو المندفع قدماً. ووجه التقارب الوحيد تماثل في الجوادين، حيث ركبا كلاهما جوادين مطهمين مندفعين، وكان جواد توشيهيتو أسمر محمراً وجواد جوي كستنائياً، ومضى كل الساموراي والباعة الجائلين يلتفتون إليهما، ويحدقون فيهما طويلاً. وانطلق خلفهما تابعان، هما وصيف وجندي من المشاة.

وعلى الرغم من أن ذلك كان في الشتاء، إلا أن ذلك الصباح كان من الصباحات الصافية على نحو استثنائي، حيث الهواء ساكن للغاية، حتى أنه ليست هناك هبة تؤرجح أوراق اللوتس الساقطة على ماء النهر المنساب على مهل، والتي مضت تشق طريقها عبر الأحجار المستقرة على قاع النهر الأبيض. ومضت فروع أشجار الحور الخفيضة، التي تجردت من أوراقها والتي تواجه النهر، تسبح في سنا الشمس الناعم كالحرير. وحتى حركة طائر رفراف جثم على قمة شجرة ألقت بظله المميز على الطريق. وأظهر جبل هاياي كتفه الحريرية التي ضربها البرد بكاملها فوق خضرة هيجاشياما القاتمة. شق كل من توشيهيتو وجوي طريقهما على مهل نحو أواتاجوتشي، وقد مضى عرق اللؤلؤ الذي طهم به

سرجاهما يتألق ملتمعاً في سنا الشمس الذهبي.

تساءل جوي، جاذباً عنان جواده: «إلى أين تودون اصطحابي يا سيدي؟».

رد توشيهيتو: «إلى هنالك فحسب. إنها ليست منطقة بعيدة كما قد يخيل لك».

- إذن فهي قرب أواتاجوتشي؟

- نعم. إنها هناك تقريباً.

عندما بلغا أواتاجوتشي، وجد جوي أن هذه المنطقة فيما يبدو ليست مقصد توشيهيتو. وبمرور الوقت تجاوزاها.

- هل سنتوقف في أواتاجوتشي.

- لا، بل بعدها بقليل.

انطلق توشيهيتو في هدوء مبتسماً، وقد تجنب عامداً النظر إلى محيا جوي. غدت الدور على جانبي الطريق قليلة ومتباعدة، حتى لم يعد هناك ما تقع عليه العين في حقول الأرز المترامية، باستثناء الغربان التي تنشد طريدة، وفي البعيد بدا الجليد المتخايل للعيان على الجانب الشمالي للجبل وقد ضرب إلى الزرقة الشاحبة. وأضافت القمم الشائكة للأشجار التي لم تتوجها الثلوج والمندفعة بحدة نحو السماء الصافية المزيد إلى برودة الهواء.

- إذن فهي قرب ياماشينا، ياسيدي؟

- لا، هذه هي ياماشينا. إن وجهتنا أبعد قليلاً.

فيما هما ينطلقان قدماً في غير إسراع، تجاوزا ياماشينا وما بعدها، وواصلا السير إلى ما بعد سيكياما، وبعد الأصيل بقليل ألفيا نفسيهما أمام معبد ماي. وكان يقيم في هذا المعبد كاهن تربطه صلة وثيقة بتوشيهيتو، فقاما بزيارته، وقدم لهما طعام الغداء، وبعد تناول الطعام، انطلقا مسرعين. كان الطريق الممتد أمامهما أكثر عزلة من ذلك الذي قطعاه بالفعل، وفي تلك الأيام كانت البلاد بأسرها تعج بقطاع الطرق، وغاب الأمان عن كل مكان.

«لاتزال وجهتنا بعيدة. أليست كذلك ياسيدي»؟! قالها جوي متسائلاً، وهو يتطلع إلى محيا توشيهيتو، وقد ازدادت كتفاه المتهدلتان انحناء.

ابتسم توشيهيتو، وكانت تلك ابتسامة من النوع الذي يبادر طفل فعل شيئاً خبيثاً أباه بها، عندما يوشك أمره على الانكشاف. بدا كما لو أن التجعدات عند طرف أنفه والعضلات غير المشدودة عند ركني عينيه تقرر ما إذا كان عليه الانفجار ضاحكاً أم الإحجام عن ذلك.

«في حقيقية الأمر، إنني أعتزم المضي بك إلى تسوروجا». قالها توشيهيتو بمرح أخيراً، ورفع سوطه، وأشار إلى السماء

البعيدة. تحت سوطه تألقت مياه بحيرة بيوا الوئيدة في ضوء شمس الأصيل. «أوه، تسوروجا؟ تسوروجا في مقاطعة إتشيزين؟» تساءل جوي في انزعاج.

كان قد سمع غالباً أن توشيهيتو قد أقام في تسوروجا في المقام الأول، منذ تزوج من وريثة فوجيوارا أريهيتو، لكنه حتى تلك اللحظة لم يدر بخلده أن توشيهيتو بسبيله إلى اصطحابه كل تلك المسافة. وتساءل أولاً كيف يمكن بوجود خادمين فحسب المضي بأمان إلى إتشيزين عبر الجبال والانهار العديدة، ثم فكر في الشائعات المتواترة، التي تفيد أن المسافرين قد قتلوا على يد قطاع الطرق، فرفع وجهاً ضارعاً إلى توشيهيتو.

قال جوي منتحباً: «رب احفظني! اعتقدت أولاً أن وجهتنا هي هيجاشياما، ولكن اتضح أنها معبد ماي. وفي النهاية، ها أنت تبلغني بأنك ستصحبني إلى تسوروجا في إتشيزين. ما الذي تعنيه؟ لو أنك أبلغتني بهذا أولاً لجلبت معي خادمي على الأقل. تسوروجا. رب احفظني!».

لو أن توقه لعصيدة إليام لم يشجعه، لربما غادر توشيهيتو، وعاد إلى كيوتو بمفرده.

قال توشيهيتو ساخراً، وقد تجهم قليلاً، وهو يرى انزعاج جوي: «اعتبر توشيهيتو وحده بألف رجل. ما من شيء يدعوك

للقلق حول رحلتنا». نادى وصيفه ووضع على كاهله الجعبة التي كان وصيفه قد حملها على ظهره، وثبت على سرجه القوس المطلية باللك الأسود، التي كان الوصيف يحملها في يده، وانطلق على رأس المجموعة. والآن لم يعد هناك من سبيل أمام جوي الذي انخفضت معنوياته إلا الطاعة العمياء لإرادة توشيهيتو. وهكذا تطلع في عجز إلى البرية الموحشة المحيطة بالمكان، وشق طريقه قدماً. لم يكن وقع خطى جواده منتظماً، وانحنى أنفه الأحمر نحو قوس سرجه، فيما هو يرتل سوترا «الربة الرحيمة» التي تذكرها، وقد دهمه شعور بأنه يوشك أن يغشى عليه.

رددت الحقول الموحشة المكشوفة وقع حوافر الجياد، وقد بدت مكتسية بالعشب المترامي الأصفر اللون، ولاحت البريكات التي تظهر هنا وهناك كما لو كانت ستتجمد في ذلك الأصيل الشتائي مع انعكاس السماء الزرقاء في صقالها. بعيداً، في الأفق، بدت سلسلة جبلية احتجبت عنها الشمس وقد افتقرت حتى لألق الثلوج، ولوَّنت الأفق بلمسة ممتدة من اللون الأقحواني القاتم. ولكن في بعض المواضع حالت كتل من العشب الذاوي الكثيب دون رؤية الخادمين لها، وقد مضيا يتبعان مقدمة الركب.

فجأة، التفت توشيهيتو إلى الوراء، وهتف منادياً جوي: «انظر! هو ذا مبعوث طيب. لسوف أبعث معه برسالة إلى تسوروجا».

عجز جوي عن فهم ما قيل، وتطلع في وجل إلى الاتجاه الذي كان توشيهيتو يشير نحو بقوسه. وبالطبع، لم يكن هناك أحد على امتداد السهل بأسره، ولكن في أجمة الأشجار التي تتداخل مع أشجارها معترشات برية، كان من الممكن رؤية ثعلب يمضي على مهل، وقد تعرض فراؤه لسنا الشمس الآخذ في الانحسار. في التو وثب الثعلب عالياً، وبدأ في العدو بأقصى سرعة، ذلك أن توشييهتو لطم حصانه بالسوط، وانطلق مسرعاً نحو الثعلب، وانطلق جوي بدوره مسرعاً للنجاة بحياته، كأنما في هذيان حمى، في أعقاب توشيهيتو. ولم يستطع الخادمان كذلك التأخر، ولبعض الوقت بدد وقع حوافر الجياد على الحجارة صمت البرية. ولكن وقتاً محدوداً، انقضى أوقف توشيهيتو بعده جواده، ودلى الثعلب، الذي كان قد أمسك به قبل أن يدرك الآخرون ذلك، وجعل رأس الثعلب باتجاه الأسفل إلى جانب السرج، ولابد أنه قد انقض عليه، وأمسك به حياً، ومسح قطرات العرق التي انحدرت على خصلات جانب وجهه، وانطلق جوي لاهثاً حتى وصل إلى توشيهيتو.

قال توشيهيتو بصوت تعمد تضخيمه، رافعاً الثعلب عالياً أمام عينيه: «الآن، اصغ أيها الثعلب! انطلق عدواً إلى دارة توشيهيتو في تسوروجا الليلة، وقل لهم: (توشيهيتو قادم الآن تواً مع ضيف مميز. ابعثوا بعض الرجال لملاقاته عند تاكاشيما في

حوالي الساعة العاشرة من صباح الغد، واجلبوا حصانين مجهزين للركوب!) تيقن من ذلك! هل ستفعل هذا؟».

عندما توقف توشيهيتو عن الحديث، أرجح الثعلب، وألقى به بعيداً نحو عشب كثيف ملتف.

«آه، ما أسرع ما انطلق يعدو! لشدما يركض!». هكذا هتف الخادمان اللذان لحقا لتوهما بتوشيهيتو محيين إياه وصفقا، فيما الثعلب يسارع بالابتعاد. وشوهد الحيوان، الذي يشبه لونه لون وريقات أشجار الخريف، وهو يركض بأقصى سرعته نحو نهاية العالم عبر الأحجار وفوق جذور الأشجار في الضوء المسائي، وكان بوسعهم أن يروه بجلاء من فوق المرتفع الصغير الذي كانوا يقفون فوقه. فقد طاردوا الثعلب لبعض الوقت، وقد وصلوا إلى قمة منحدر خفيف الانحدار متواصل مع الامتداد البري الذي ينساب إلى مجرى النهر الجاف.

«إنه مبعوث الأرواح. أليس كذلك، ياسيدي!» قالها جوي مستسلماً لدهشته وإعجابه الساذجين، وتطلع عالياً، بمزيد من الاحترام، نحو محيا الفارس الضاري الذي حصل على الخدمة عن طواعية من ثعلب. لم يفكر في الهوة التي تفصله عن توشيهيتو، وإنما كل ما هنالك أنه أحس بمزيد من اليقين، حيث أنه قد وقع بصورة متزايدة تحت تأثير توشيهيتو، بأن إرادته قد أصبحت أكثر تحرراً في الحضن الرحب لإرادة هذا البطل.

وربما يجد الإطراء ميلاده الطبيعي في مثل هذه المناسبة. ومن هنا فإنه إذا وجد القارىء في وقت لاحق في جوي ذي الأنف الأحمر شيئاً من التملق، فإنه لا ينبغي له أن يضع شخصيته موضع التشكك بصورة عشوائية.

اندفع الثعلب، الذي أُلقي به بعيداً، هابطاً المنحدر، كأنما كان يتدحرج، وتقافز برشاقة فوق الأحجار في مجرى النهر الجاف، وانطلق يعدو بصورة مشوشة مرتقياً الجانب الآخر بقوة ونشاط. وفيما كان يندفع مرتقياً المنحدر، تطلع إلى الوراء، وشاهد جمع السامواري الذين أمسكوا به وهم لايزالون على ظهور الجياد على قمة المنحدر النائية، وبدوا جميعاً صغاراً كأصابع ضمت معاً. وغمرت الشمس الغاربة الرائعة بصفة خاصة الجواد الأسمر المحمر والجواد الكستنائي المشوب ببياض، حيث برزا على نحو حاد في الهواء البارد.

التفت الثعلب برأسه متجهاً إلى الأمام، وشرع في العدو مجدداً كالريح عبر العشب الهالك.

وصل الجمع إلى مشارف تاكاشيما في حوالي العاشرة من اليوم التالي، كما كان متوقعاً. كانت دسكرة صغيرة تواجه بحيرة بايوا، لاتضم إلا عدداً محدوداً من الدور المسقوفة بالقش والمتناثرة على نحو متباعد في الحقول. ملأت السحب المنذرة بهطول المطر السماء، على العكس من سماء الأمس الصيفية.

عكس سطح البحيرة المتموج الصورة المرقشة لأشجار الصنوبر التي تنمو على ضفتها. وفي التو توقف المسافرون، والتفت توشيهيتو نحو جوي، وقال: «انظر! هناك رجال يقبلون لملاقاتنا».

من بين الرجال العشرين أو الثلاثين الذين كانوا يجلبون جوادين مسرجين، كان البعض يركبون الجياد، وسار آخرون مترجلين. ومضت الريح الباردة تجتذب أرديتهم الحريرية، وقد أقبلوا جميعاً نحوهم مسرعين على امتداد ضفة البحيرة، وعبر أشجار الصنوبر. وما أن اقتربوا من توشيهيتو، حتى بادر الرجال الذين قدموا على ظهور الجياد بالترجل مسرعين، بينما ركع من كانوا يسيرون مترجلين على الأرض، وانتظروا جميعاً بإجلال وتوقير مقدم توشيهيتو.

قال جوي: «يبدو أن الثعلب قد أدى مهمة المبعوث حقاً».

رد توشيهيتو: «نعم، فالثعلب هو حيوان يتمتع بقدرة طبيعية على التنكر، ومن هنا فإن من السهل عليه أن يؤدي مثل هذه الخدمة».

بينما كان جوي وتوشيهيتو يتحدثان حول هذا المعنى، وصلا ومعهما خادماهما إلى حيث كان أتباع توشيهيتو ينتظرون.

هتف توشيهيتو بهم: «شكراً لكم لقدومكم». وقف الأتباع الذين كانوا جميعاً راكعين، في الحال، وأمسكوا بعناني جوادي توشيهيتو وجوي.

لم يكد الاثنان يترجلان عن جواديهما ويقتعدان وسائد مكسوة بالفراء، حتى أقبل تابع أشيب الشعر يرتدي ثوباً حريرياً بني اللون، ومثل أمام توشيهيتو، وقال: «حدث أمر غامض البارحة».

«حسناً. ماذا كان ذلك؟». هكذا تساءل توشيهيتو، بطريقة متعاظمة، وهو يقدم لجوي الطعام والشراب، اللذين كان الأتباع قد أحضروهما.

«لطفا، يامولاي! حوالي الساعة الثامنة البارحة، غابت مولاتي عن الوعي، وقالت: (إنني ثعلب ساكاموتو، وسأنقل لكم رسالة بعث بها سيدي اليوم، لذا اقتربوا مني، وانصتوا!) فمثلنا جميعاً أمامها، وعندئذ قالت: (زوجي مقبل الآن تواً مع ضيف مميز. في حوالي العاشرة من صباح الغد، ابعثوا رجالاً إلى مشارف تاكاشيما واصطحبوا جوادين مسرجين). تلك كانت الرسالة التي أبلغتنا إياها».

تدخل جوي في الحديث، على نحو موح بالأهمية، بملاحظة قصد بها أن تدخل السرور في نفوس الجميع: «ذلك أمر بالغ الغموض».

مضى التابع في حديثه قائلاً: «أبلغتنا مولاتي بالأمر بطريقة غير عادية، فقد قالت وهي ترتجف ذعراً: (لاتتأخروا! فلئن

تأخرتم، فإن زوجي سيعاقبني!). وبينما كانت تتحدث راحت تبكي بلا توقف».

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- بعد ذلك غمرها النعاس. وعندما غادرنا المكان، بدا أنها لاتزال غارقة في نومها.

«ماذا تقول في ذلك؟». قالها توشيهيتو متسائلاً، ملتفتاً بنظرة ملؤها الكبرياء إلى جوي، عندما فرغ تابعه من حديثه، وأضاف: «حتى الحيوانات تخدم توشيهيتو».

رفع جوي رأسه، وهرش أنفه المحمر، ورد بصورة مسرحية: «فاضت نفسي إعجاباً على نحو يستعصي علي التعبير» ثم مرر لسانه فوق شفته العليا ليزيل قطرات الساكي التي علقت بشاربه.

حدث ذلك في الليلة نفسها، كان جوي يمضي ليلة جافاه النوم فيها في غرفة بدارة توشيهيتو، وقد ثبتت عيناه على ضوء منبعث من مصباح زيتي.

ثم مرت بذهنه صورة التلال التي تكسوها أشجار الصنوبر، الغدران، الحقول الذاوية، العشب، وريقات الشجر، الأحجار، ورائحة الدخان المنبعث من حرائق الحقول، كل هذه الأشياء، أحدها إثر الآخر. والارتياح المفعم بالسرور الذي استشعره لدى

رؤية الوهج الأحمر للفحم في المجمرة الطويلة عندما وصلوا إلى الدارة في وقت سابق من ذلك المساء، هذا الارتياح بدوره لا يمكن إلا أن يعتبر حدثاً ينتمي إلى الماضي البعيد.

مد ساقيه تحت الرداء الاحتفالي الأصفر الفخم الذي خلعه عليه توشيهيتو، وحاول أن يستجمع أحداث المساء معاً. وجعل دماغه الذي غلبه الشراب ذلك مستحيلاً. تحت الرداء الاحتفالي كان يرتدي ثوبين خمريين مبطنين بصورة سميكة، كان توشيهيتو قد خلعهما عليه كذلك. وتحت هذا الدفء المريح أدرك أنه الآن يجلس في حجر الثروة. وقد تصور أن الليلة كانت قارسة البرد. وبدت أحداث حياته الهزيلة مقارنة بالأحداث التي مرت به الليلة كأحداث حياة حمال مقارنة بأحداث حياة أمير. ولكن على الرغم من ذلك كله، كان هناك عدم ارتياح غريب في ذهنه. وفي المقام الأول كان يستعجل مرور الوقت. ومع ذلك، فإنه من ناحية أخرى أحس بأن ذلك الفجر، أي ما يحمله معه من التهام عصيدة إليام، لا ينبغي أن يحل بأسرع مما يجب. جثمت في خلفية ذهنه عصبية من جراء هذا التغير السريع في الظروف، وبعثت البرودة في فؤاده، وأبقته يقظاً.

رويداً رويداً، سمع أحدهم يهتف في الفناء الكبير بالخارج. وإذا شاء المرء أن يحكم بالاستعانة بالصوت لوصل إلى أنه صوت التابع الأشيب، الذي قطع جانباً من الطريق لملاقاه توشيهيتو.

بدا كما لو أنه يقوم بإعلان من نوع ما.

«إصغوا أيها الخدم جميعاً! يريد مولاي أن تقوموا شيباً وشباناً بإحضار ثمار يام سمكها ثلاث بوصات وطولها خمس بوصات في الساعة السادسة صباحاً. تذكروا في الساعة السادسة صباحاً!». تردد صوت العجوز الجاف عبر الهواء البارد، وبدت كلماته ذاتها كما لو كانت تخترق عظام جوي وصولاً إلى النقي، فبادر بصورة غير واعية إلى إحكام لف ردائه الاحتفالي حوله.

جرى تكرار الأمر، ثم انتهت الجلبة، وبدا أن كل شيء يعود من جديد إلى رحاب صمت سابغ يلتف به الليل الشتائي.

فقد مضى الخدم ليصدعوا بالأمر، ربماً خوفاً على حياتهم، فيما تصور جوي. وإذ غدا وحيداً مع أفكاره مجدداً، فقد أخذ يتقلب في مضجعه. وفي نهاية المطاف رقد ساكناً، فقد ملأ الغرفة صمت طاغ، لا يقطعه إلا صوت الزيت المحترق في المصباح. وراح نور الفتيلة الأحمر يتوهج ويخبو.

هكذا فإنه، في نهاية المطاف، سيحظى بعصيدة إليام. عندما فكر في هذا، عاد إليه من جديد القلق القديم الذي كان قد فارقه بسبب التشويش النابع مما كان يجري في الخارج.غدا تردده الغريب حيال أن تقدم له عصيدة إليام في وقت جد قريب أقوى مما كان، وواصل الهيمنة على خواطره، بدا أن مثل هذا

التحقيق المبكر للرغبة التي أفعمت فؤاده كما لو كان يحول سنوات من الانتظار الصبور إلى جهد عبثي. وتمنى لو أن ذلك بالإمكان أن يحدث شيء غير متوقع يحول بينه وبين تناول عصيدة إليام لبعض الوقت. جالت مثل هذه الأفكار في ذهنه كالكرة الخشبية المدومة. أخيراً، وإذ غلبه التعب من رحلته الطويلة، فقد غرق في نوم عميق.

عندما استيقظ، في صباح اليوم التالي، كانت فكرة عصيدة إليام في خاطره. ولابد أنه قد أفرط في النوم. وثب ناهضاً من الفراش، عبر أرضية الغرفة، وفتح النافذة. شاهد في الخارج ما بدا للوهلة الأولى وكأنه أكوام هائلة من الكتل الخشبية المربوطة معاً، وقد كدست حتى ناهزت السقف في ارتفاعها. فرك عينيه اللتين لم تخلصا من النوم تماماً، وتطلع مرة ثانية، فأدرك بشهقة حادة طبيعتها. لقد كانت ثمار يام! ثمار يام! ثمار يام! ثمار يام كبيرة على نحو هائل، سمكها ثلاثة أقدام، وطولها خمسة أقدام، تكفي لإطعام بلدة تسوروجا بأسرها. وضعت في الفناء الرحب خمسة أو ستة مراجل جنباً إلى جنب على مسامير ضخمة جديدة سمرت في الأرض، وعكفت على العمل دزينات من الخادمات اليافعات في ثياب ذات أطراف بيضاء، محدثات طنيناً يحاكي طنين النحلات من حولهن. مضى بعضهن يوقد النار، والبعض يزيح الرماد بعيداً، وعكفت أخريات على صب

عصير نبات المرنطة الحلو في المراجل من دلاء خشبية. ارتفعت كتل من الدخان من تحت المراجل. وعلت منها هبات من البخار الأبيض لتختلط بغبش الفجر الذي لايزال جاثماً، ومن حجاب رمادي كان لايزال مسدلاً على الفناء المترامي، الأمر الذي حجب كل شيء عن العيان، إلا ألسنة اللهب الحمراء المتعالية من النيران المتأججة. كان الفناء الرحب في حالة من الانفعال المتشابك المحتدم، لا تقع عليها عين إلا في ميدان معركة أو في مشهد حريق. أفعمت هذه المراجل الهائلة التي تغلي فيها ثمار إليام متحوله إلى عصيدة نفس جوي بدهشة واستياء غامضين، وجعلته يتذكر بوضوح بالغ أنه قطع الرحلة الطويلة من كيوتو إلى تسوروجا من أجل الهدف الصريح المتمثل في التهام عصيدة إليام، وكلما أوغل في التفكير، تفاقم شعوره بالبؤس حول كل شيء. وبحلول ذلك الوقت كان قد فقد بالفعل نصف الشهية، التي راكمت حتى الآن تعاطفنا معه.

بعد ساعة، جلس على الإفطار مع توشيهيتو وحميه أريهيتو. استقر أمامه راقود، هو عبارة عن وعاء هائل للسوائل، امتلأ حتى الحافة ببحر من عصيدة إليام. وكان قبل ذلك قد شاهد دزينات من الشبان المتحمسين، وهم يمسكون سكاكين المطبخ ببراعة يقطعون كومة ثمار إليام إلى شرائح ارتفعت لتبلغ.. طنف الدار. وكان قد شاهد الخادمات، وهن يركضن هنا وهناك

لتتجاوز إحداهن الأخرى، مفترفات شرائح إليام، ومبادرات إلى وضعها في المراجل. وعندما نفدت كل ثمار إليام التي كومت فوق الحصر، كان قد رأى سحباً من البخار تفوح بعبق ثمار إليام والمرنطة، وهي تعلو متصاعدة من المراجل إلى هواء الصباح الصافي. ومن الطبيعي للغاية أن جوي، الذي كان قد شاهد هذه الأمور، عندما قدمت له عصيدة إليام في وعاء كبير أحس بالتخمة حتى قبل أن يتذوق الطعام المترف. جلس أمام الوعاء، ومضى يجفف عرقه وقد غمره الشعور بالحرج.

قال حمو توشيهيتو: «سمعت بأنك لم تحصل على كفايتك من عصيدة إليام. فتفضل لطفاً بتناولها من دون حرج!» وأمر الفتية القائمين بالخدمة بإحضار العديد من الأطباق الإضافية المترعة بعصيدة إليام. غرف جوي حوالي نصف عصيدة إليام من الوعاء الموضوع أمامه في طبق فخاري كبير، وأغمض عينيه، وأتى على ما به من عصيدة متردداً، وقد ازداد أنفه المحمر احمراراً.

«كما قال أبي، لاتتردد، وهلم إلى المزيد!». قالها توشيهيتو، مبتسماً في خبث، وألح على جوي لتناول وعاء آخر من عصيدة إليام. فألفى جوي نفسه في محنة رهيبة، فهو بصراحة لم يرد تناول طبق واحد من عصيدة إليام حتى في البداية. وبصمود عظيم أفلح في التهام نصف وعاء منها، وقد غلب عليه الظن أنه إذا تناول المزيد منها، فإنه سيتقيأ قبل أن يبتلعها. ولكن رفض

تناول المزيد يعني قلب ظهر المجن للطف توشيهيتو وأريهيتو. هكذا أغمض عينيه مجدداً، والتهم ثلث النصف الباقي في الوعاء. ولم يعد بوسعه تناول المزيد، وإن قل.

«إنني شديد الامتنان لكم». غمغم جوي على هذا النحو معرباً عن تشكراته غير المفهومة. وقد استبد به حرج يثير الإشفاق، بحيث أن قطرات من العرق تكونت على شاربه وطرف أنفه، كأنه في منتصف الصيف، لا الشتاء.

قال أريهيتو: «ما أقل أكلك! يبدو أن ضيفنا على شيء من الخجل. أيها الفتية، نحوا عنكم الكسل!». لدى سماع كلماته، حاول الخدم صب المزيد من عصيدة إليام من الأوعية الجديدة إلى الطبق الفخاري، لوَّح جوي بيديه كلتيهما، كأنما هو يطرد الذباب بعيداً، وأعرب عن رغبته الشديدة في إعفائه من تناول المزيد.

لو أن توشيهيتو لم يبادر في ذلك الوقت، على نحو غير متوقع، بالقول: «انظروا هنالك!» مشيراً إلى طنف الدار المجاورة، لكان أريهيتو قد واصل الإلحاح على جوي بتناول المزيد من عصيدة إليام. ولكن من حسن الطالع أن صوت توشيهيتو قد اجتذب اهتمام الجميع نحو الطنف. كانت شمس الصباح تلقى بسناها على السقف المتخذ من ألواح أشجار السرو. جثم حيوان في سكون على الطنف، وفراؤه الناعم يسبح في سنا الشمس

المتألقة. كان ذلك هو ثعلب ساكاموتو، الذي أمسكه توشيهيتو قبضاً بيديه في الحقول الذاوية قبل يومين.

«لقد أقبل الثعلب كذلك استجابة لرغبة في عصيدة إليام. أيها الرجال أعطوه طعامه!». في التو نفذت أوامر توشيهيتو. ووثب الثعلب هابطاً من الطنف، وبدأ على الفور في التهام عصيدة إليام.

راقب جوي الثعلب وهو يتناول وجبته، واستعاد بشغف ما مضى من حياته قبل أن يجيء إلى تسوروجا. وكان ما تذكره هو أنه قد سخر منه العديد من المحاربين، وشتمه حتى صبية كيوتو، قائلين: «ماذا؟ أنت ياذا الأنف الأحمر!» وأنه كان كائناً وحيداً مثيراً للشفقة، يرتدي ثوباً حريرياً ناصلاً، ويتقلد سيفاً لا قيمة له، ويضرب بلا هدف في جادة سوجاكو، شأن كلب طريد. ولكنه في الوقت نفسه كان سعيداً، يكتنز رغبته في التهام عصيدة إليام حد الامتلاء. ومع تأكده من أنه ليس بحاجة لالتهام المزيد منها، أحس بالعرق الذي تقاطر على وجهه يجف تدريجياً، بداية من طرف أنفه. لقد كان الصباح الباكر في تسوروجا بديعاً، لكنه بارد، ومضت تهب رياح قارسة. أمسك جوي بأنفه مسرعاً، وأطلق عطسة مدوية تجاه الوعاء الفضي.

.... الضحية

«حتى إذا علا العمر بالمرء، فعمَّر ثلاثمئة عام، من البهجة المفرطة، فإن ذلك ليس إلا حلماً مقارنة بالسعادة الأبدية»

جيد دو بيكادور

«من يسلك طريق الخير، سيحظى بالعذوبة الغامضة التي تواكب العقيدة»

إميتاسيوني كريستي

في ليلة عيد الميلاد منذ عدة سنوات، عثر على صبي ياباني صغير، وقد استبد به الإعياء، ومضى يتضور جوعاً، عند مدخل كنيسة سانتا لوتشيا في نجازاكي، فأدخله الآباء الجزويت الذين قدموا إلى الكنيسة واعتنوا به، ودعوه باسم لورنزو، وتمت تربيته بعد ذلك في الكنيسة برعايتهم.

عندما سألوه عن مولده وعن أبويه، لم يكشف من تاريخه شيئاً قط، وإنما أدلى بردود غامضة للغاية من قبيل «الفردوس بيتي» و«أبي هو أب الجميع». وحالت ابتسامته الرقيقة دون توجيه المزيد من الاسئلة عن ماضيه.

غير أنه بدا جلياً من المسبحة الزرقاء التي أحاطت برسغه أن عائلته ليست بعيدة عن التدين، وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الآباء العطوفين يرقّون له، ويحبونه.

ذهل الآباء حيال ورع هذا الصبي الصغير، إلى حد أنهم بمرور الوقت أصبحوا ينظرون إليه باعتباره تجسيداً لملاك، وأحبوه كأشد ما يكون الحب، على الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ماضيه. وفضلاً عن ذلك، فإن كمال محياه وهيئته ونقاءهما وصوته الأنثوي العذب، كل ذلك جعله مقرباً من الجميع.

من بين الآباء جميعاً، أحبه سيميون بصفة خاصة، كما لو كان أخاً له، وكانا يشاهدان معاً في دخولهما الكنيسة وخروجهما منها. وكان سيميون الذي ولد لعائلة محاربة قد خدم في وقت من الأوقات سيداً إقطاعياً. وكان عملاقاً، أوتي بسطة في البدن، يتمتع بقوة هرقل، ودافع أكثر من مرة عن الآباء ضد بعض من حاولوا رجمهم بالحجارة من مخالفيهم في العقيدة. وربما قورنت صداقته المتناغمة للورنزو برعاية صقر شديد الضراوة لحمامة أو بكرمة تزدهر ملتفة حول شجرة أرز في جبل لبنان.

في غضون ذلك، مرت ثلاث سنوات سراعاً. وآن أوان احتفال لورنزو ببلوغه مبلغ الرجال. وفي ذلك الوقت انتشرت شائعة تفيد أن لورنزو وابنة صانع مظلات يقيم غير بعيد عن الكنيسة تربطهما صلة حميمة. ولما كان صانع المظلات من

معتنقي المسيحية كذلك، فقد كان من المألوف أن يرتاد الكنيسة مع ابنته، وحتى في أوقات ترتيل الصلوات لم تكن هذه الفتاة ترفع عينيها عن لورنزو. وفضلاً عن ذلك، فقد كان من المؤكد أنها في دخولها الكنيسة وخروجها منها ترمقه بعينيها الجميلتين والمفمعمتين حباً. وقد اجتذب هذا بصورة طبيعية انتباه الجمع، وقال البعض إنها قد داست على قدمه عامدة، فيما قال آخرون إنهما قد شوهدا وهما يتبادلان رسائل المحبة.

لما كان القيل والقال عن الفتى والفتاة قد زادا عن حدهما، فقد خلص كبير آباء الكنيسة إلى أن الأوان قد آن لمساءلة الفتى الذي كفله برعايته. وذات يوم استدعى لورنزو، وسأله بلطف، وهو يمسد شعره الأشيب المسترسل: «لورنزو، نمت إلى علمي شائعات غير محببة عنك وعن ابنة صانع المظلات. ولكن من المؤكد أنها لا يمكن أن تكون صحيحة. هل يمكن أن تكون كذلك؟». هز لورنزو رأسه في حزن، واكتفى بأن يكرر بصوت يخضله الدمع القول: «لا، إنها ليست صحيحة. وهي لا أساس لها بالمرة». وبعد إنكارات الفتى العديدة الدامعة، اقتنع الأب في نهاية المطاف، أخذاً في الاعتبار حداثة سن الفتى وورعه الدائم بأنه لا يقول إلا صدقاً، وصرفه بعد كلمة موجزة عن ضرورة حسن السيرة والسلوك.

نعم، لقد تبددت شكوك الأب، لكن الشائعات تواترت بين

أهالي سانتا لوتشيا، وأثارت هذه الفضيحة بصفة خاصة قلق سيميون، صديق لورنزو العزيز. وفي البداية، كان أكثر خجلاً من أن يتحرى أمراً شائناً على هذا النحو، ولم يعجز عن سؤال لورنزو فحسب، وإنما عن مجرد مواجهته.

غير أنه تصادف أن عثر في الحديقة الخلفية للكنيسة على رسالة حب من الفتاة موجهة إلى لورنزو، فراح يسأل لورنزو بطرق متعددة، وقد دفع الرسالة دفعاً في وجهه، ومضى يهدده ويستدرجه للحديث. لكن لورنزو اكتفى، وقد احمر وجهه خجلاً بالقول: «يتناهى إليّ أن الفتاة قد منحتني قلبها، ولكنني لم أتلق منها إلا الرسائل، ولم يحدث قط أن تجاذبت معها أطراف الحديث». ومضى سيميون الذي استشعر ثقل رأي المدينة يضغط بالأسئلة على لورنزو، الذي قال وهو يرمقه بنظرته المفعمة حزناً ولوماً: «هل أبدو كاذباً حتى في عينيك؟». وغادر الغرفة مثلما تغادر قبّرة عشها. وفي مواجهة هذه الكلمات، أحس سيميون بالخجل يهيمن عليه، حيث ساوره الشك في لورنزو، وكان بسبيله إلى مغادرة المكان محني الرأس، عندما اندفع الفتى لورنزو فجأة إلى المكان، وعانق سيميون، وقال هامساً، وهو يلتقط أنفاسه بالكاد: «لقد كنتُ على خطأ، فسامحني!». وقبل أن يستطيع سيميون الرد بكلمة واحدة، كان لورنزو قد اندفع خارجاً مثلما جاء، مسرعاً كأنما ليخفي محياه

الذي بلله الدمع، فلم يدر سيميون ما إذا كان لورنزو قد شعر بالذنب من جراء صلته الحميمة بالفتاة أو حيال سلوكه الخشن.

في وقت لاحق، صدم أهالي البلدة حيال النبأ الذي أفاد أن ابنة صانع المظلات ستصبح أماً عما قريب. وقد أبلغت أباها بأن الطفل الذي تحمله في أحشائها هو من صلب لورنزو. وفي التو حمل صانع المظلات العجوز، وقد استبد به غضب هائل الاتهام إلى رهبان سانتا لوتشيا. قال لورنزو الذي استدعي للممثول أمامهم: «الأمر ليس كذلك» ولكنه لم يستطع أن يلتمس لنفسه عذراً أمام مثل هذا الدليل. وفي اليوم نفسه، اجتمع الآباء والأخوة جميعاً في مؤتمر حاشد، وحكموا على لورنزو بالحَرْم الكنسي. ومن شأن حرمه الكنسي، أي نفيه من الكنيسة، أن يحرمه في التو من سبل المعيشة. ولكن الإبقاء على الخاطىء في سانتا لوتشيا كان سيجلب العار على الجميع، ومن هنا فإن الرهبان، الذين أحبوا لورنزو، قيل إنهم طردوه بعيداً والدموع ملء أعينهم.

كان الأكثر إثارة للإشفاق بين الجميع هو سيميون الذي كان الصديق المقرب للورنزو. وإذ فاق ضيقه من تعرضه للخداع حزنه على طرد صديقه فقد لطمه في وجهه الوسيم، وهو يخرج حزيناً من الدهليز إلى المطر الشتوي البارد المنهمر بكل عنفوانه. أخلّت الضربة بتوازنه، فهوى على الأرض، لكنه نهض متثاقلاً،

وتطلع إلى أعلى نحو السماء بعينين دامعتين، وراح يبتهل بصوت مرتعش: «اللهم اغفر لسيميون، فهو لا يعرف ما تجنيه يداه!». وإذ أحس سيميون بفؤاده ينكسر إزاء هذه الكلمات، فقد مضى يلطم الهواء بذراعيه لبعض الوقت عند الدهليز. وحينما كبح الآخرون جماحه، طوى ذراعيه، وبوجهه الذي يحمل سمات الحدة كالسماء المترعة بالتهديد، راح يحدق ساخطاً في ظهر لورنزو، الذي كان يغادر بوابة سانتا لوتشيا. ووفقاً للقصة التي رواها أخوة تصادف وجودهم هناك، فإن فويبوس كان في تلك اللحظة عينها يمضي مرتعداً في غمار المطر الشتوي يقود قرص النهار القرمزي تحت سماء نجازاكي الغربية وملاك لورنزو المكتئب يخوض في طريقه المفعم تعباً إلى سنا القرص السماوي، وقد بدا مكتسباً لهالة نورانية من لهيب سماوي.

بعد ذلك، غدا لورنزو كائناً مختلفاً تماماً، مقارنة بالوقت الذي اعتاد فيه تقديم البخور في مذبح سانتا لوتشيا، فقد تدنى به الحال إلى التسول البائس، وأقام في زريبة مكشوفة للمنبوذين عند أحد أطراف المدينة، وقد تعرض للازدراء، وانهالت عليه الحجارة، ولم يكن يستطيع السير في الشوارع إلا وسط سخرية الصبية الذين تجردوا من العطف. ومراراً وتكراراً تعرض للضرب بالعصي والرجم بالأحجار والطعن بالسيوف. وفي وقت من الأوقات وقع في قبضة حمى فظيعة كانت تجتاح مدينة

نجازاكي، ومضى يتقلب في ألم ومعاناة إلى جانب أحد الطرق على مدار أسبوع كامل. ولم تنقذه رحمة السماء من الموت فحسب، وإنما منحته توتا برياً وسمكاً ومحاراً. عندما لم تكن الصدقات التي تعطى له تضم مالاً أو أرزاً. هكذا مضى يبتهل ضارعاً ليلاً ونهاراً على نحو ما كان يفعل أيام سانتا لوتشيا، ولم ينتزع من يده المسبحة ذات الحبات المتخذة من حجراليشب الأخضر. وفضلاً عن ذلك، فقد اعتاد أن يتسلل في قلب الليل من زريبة المنبوذين التي يقيم بها، وفي سنا البدر يشق طريقه إلى أقرب مسافة يجرؤ عليها من سانتا لوتشيا، ليواصل ابتهالاته.

لم يكترث رواد الكنيسة بالفتى. وفي نهاية المطاف لم يحس أحد، بمن في ذلك الآباء، بالشفقة عليه. ولما كانوا مقتنعين بحقيقة الشائعات المشينة ،التي سادت في وقت تعرضه للحرم الكنسي، فإنه ما من شيء كان أبعد عن أذهانهم من أنه فتى شديد الورع بحيث يقوم بزيارة سانتا لوتشيا ليلاً بمفرده. وقد كان ذلك شيئاً مؤسفاً حقاً بالنسبة للورنزو.

في غضون، ذلك وضعت ابنة صانع المظلات العجوز طفلة قبل أوان ولادتها، وسرعان ما أصبحت أثيرة عند العجوز العنيد، لانها كانت أول حفيدة له. وقد اعتنى أشد العناية لا بابنته وحدها، وإنما بحفيدته كذلك، حيث راح يحملها بين ذراعيه،

ويداعبها، ويعطيها دمية لتلهو بها. وقد كان ذلك طبيعياً بالنسبة لجد. ولكن سيميون كان متميزاً في السلوك الذي انفرد به، فبعد أن وضعت ابنة صانع المظلات الوليدة، بادر هذا الشاب، الذي كان يبدو عملاقاً قوياً بما يكفي لقهر الشيطان، إلى زيارة عائلة صانع المظلات كلما توفر له وقت الفراغ الذي يسمح له بذلك، ويرفع الوليدة بين ذراعيه الخشنتين، وقد كست الدموع وجهه الممرور، ويتذكر لورنزو الرقيق، الهادىء، الشاحب، الذي أحبه كأخ أصغر له. غير أن ابنة صانع المظلات بدا أن الحزن والأسى قد استبدا بها لأن لورنزو، منذ تعرضه للحرم الكنسي، لم يأت لرؤيتها أو لرؤية الطفلة، ولم تبد مسرورة بزيارات سيميون.

الزمان والمد لا ينتظران أحداً، وقد مرَّ عام مثلما ندفة ثلج تهمي على نهر، فهي تتألق بالبياض لحظة ثم تحتجب للأبد. ثم على غير انتظار شب حريق كارثي، وهدد باجتياح نجازاكي بأسرها في ليلة واحدة. واندلعت النيران بضراوة بالغة إلى حد بدا معه كأنما قد نفخ في الصور، إيذاناً بإندلاع نيران جهنم. ولما كانت دار صانع المظلات في مهب الريح، فقد التهمتها ألسنة اللهب في لحظة، واستبد الذعر بالعائلة جميعها، فسارعت بالهرب من الدار بعيداً عن ألسنة اللهب، وعند ذلك أدركوا فجأة أنهم قد تركوا الوليدة نائمة في مهدها في غرفة أخرى. وكل ما

استطاع العجوز القيام به هو الهذيان ولطم الأرض بقدمه غيظاً وجنوناً. وكان يمكن لا بنته أن تندفع عائدة للمبنى المحترق لإنقاذ صغيرتها، لولا أن الآخرين قد حالوا دون قيامها بذلك. ومضت الرياح الضارية تضيف المزيد إلى قوتها مع مرور كل لحظة، وتعالت أعمدة ألسنة اللهب، كأنما لتحرق النجوم في عنان السماء. ولم يستطع أبناء المدينة الذين تجمعوا سوياً لمكافحة الحريق القيام بشيء، إلا تحذير الآخرين من الخطر، بينما كان كل ماقدر عليه من تجمعوا قرب الدار هو تهدئة المرأة، التي استبد بها الانفعال والاهتياج. وفي تلك اللحظة أقبل سيميون شاقاً طريقه في يسر كأنما يسير وسط عشب عال، حيث كان بطلاً عملاقاً سبق له أن تلقى وقع الرصاص والسهام في معارك خاضها من أجل السادة الإقطاعيين. وسرعان ما أدرك الموقف فاندفع في جرأة نحو ألسنة اللهب، لكنه ما لبث أن تراجع أمام عنفوان النيران الرهيبة. وكان بالكاد قد اقتحم قلة من سحب الدخان عندما اضطر للتراجع مسرعاً، وعاود الظهور أمام العجوز وابنته، وقال لاهثاً: «هذه مشيئة الله. ولابد لكما من الإذعان لما هو محتم ومقدور!» في تلك اللحظة، صرخ أحدهم قرب العجوز «لينقذنا الرب!». ولما كان الصوت قد بدا مألوفاً لسيميون، فقد التفت ليرى عمن صدر الصوت. كان الصوت صادراً عن لورنزو بلا شك. أتاحت لمحة عاجلة للسامور اي

العجوز رؤية محياه الملائكي وقوامه الذي سترته الخرق البالية، وأضاء محياه النقي الناحل متألقاً في وهج النار، وقد اجتذبت الريح شعره الأسود، الذي كان ينسدل على كتفيه. مضى لورنزو المسكين الذي ظهر في هيئة متسول يحدق في الدار التي عمتها النيران المتقدة. ولكن ذلك لم يدم إلا مقدار طرفة عين، فلم تكد ريح رهيبة تندفع لتؤجج ألسنة اللهب حتى اندفع نحو أعمدة النيران وعوارضها وجدرانها. «لينقذنا الرب!» هكذا صاح سيميون وقد انهمر العرق البارز فعمر بدنه كله. وفي تلك اللحظة، وعلى نحو ما تراءى له قوام لورنزو الرشيق الذي يغمره الحزن وهو يخرج من سانتا لوتشيا نحو الضياء السماوي في المطرى الشتوي المنهمر.

ذهل الآباء الذين كانوا على مقربة إزاء عمل لورنزو البطولي، لكنهم تذكروا فعلته الشائنة القديمة، وفي الحال اكتسحت الجمع تعليقات غير مستحبة، وقد حملتها أجنحة الريح، ومضى شخص وراء الآخر يكيلون له اللعنات، وقال قائلهم: «حقاً الأب هو الأب. ها هو لورنزو الذي لم يجرؤ على الاقتراب بسبب عار خطيئته اندفع لتوه إلى النار لينقذ طفلته». وبدا أن العجوز يتفق معهم في وجهات نظرهم، ولكي يخفي فيما يبدو ما يختلج في فؤاده من عذاب فقد راح يصرخ بأشياء سخيفة في قلق مؤرق. وجثت الابنة في فزع على ركبتيها، حاجبة وجهها بيديها كلتيهما.

وركعت جامدة بلا حراك كأنما في غيبوبة، وهي تردد الابتهالات بكل فؤادها وروحها. انهمر الشرر كالمطر من السماء، وتدفق الدخان فوق الأرض، فغمر وجهها. ولكنها كانت غارقة في ابتهالها، وقد ذهلت عن نفسها وعن العالم من حولها.

بعد بعض الوقت، غمر اهتياج مفاجئ، الجمع الذي تحلّق حول النيران المتأججة، عندما لاح لورنزو بشعر مشعث وقد لفه برج من ألسنة اللهب، ممسكاً الوليدة بكلتا يديه وقد رفعها عالياً، كأنما هبط من السماء، ولابد أن إحدى الدعامات قد انهارت عندئذ، لأن لسان لهب مصحوباً بدخان هائل قد ارتفع عالياً، مع صوت تحطم رهيب، إلى عنان السماء، واختفى قوام لورنزو، ولم يبق ما تقع عليه العين إلا عمود من النيران المتقدة يندفع عالياً في لون المرجان.

ذهل العجوز سيميون والآباء الآخرون جميعاً حيال هذه الكارثة الكبرى، وأصابهم الدوار. أطلقت المرأة الشابة صرخة حادة، ووثبت عالياً، فبدت ساقاها للعيان، لكنها تمددت على الأرض من جديد، كأنما ضربتها صاعقة. أياً كان الأمر، فإنه قبل أن يدروا بجلية الأمر عثر على الوليدة، وقد التفت حولها بإحكام يدا أمها التي كانت قد ألقت نفسها على الأرض. آه، يالحكمة الرب اللامتناهية والتي لا حدود لها! كانت الوليدة التي ألقاها لونزو بآخر ما بقي له من قوة مفعمة باليأس فيما

الدعامة المحترقة تتهاوى عليه قد سقطت من دون أن يمسها أذى عند قدمي أمها.

عندئذ ند عن فم العجوز صوت مبتهل علا بتمجيد محبة الرب جنباً إلى جنب مع صوت الأم، التي كانت تبكي على الأرض وتنسال على وجهها دموع الفرح. وفي غضون ذلك، كان سيميون، في غمار رغبته التي ملأت فؤاده في إنقاذ لورنزو، قد اندفع مباشرة إلى غمار عاصفة النار المتقدة، وارتفع صوت العجوز إلى عنان السماء الليلية في صلاة مترعة قلقاً وإشفاقاً. لم يغرق جد الوليدة وحده في الابتهال الضارع، وإنما شاركه فيه كل من وقفوا حول الأم والطفلة. وسرعان ما تمت الاستجابة لابتهالهم. انظروا. ها هو ذا لورنزو الذي تعرض للاحتراق على نحو فظيع قد تم إنقاذه، واستقر بين ذراعي سيميون بعيداً عن ألسنة اللهب والدخان.

لم تكن تلك هي كل بلايا تلك الليلة، فقد حمل الآباء في أحضانهم في التو لورنزو، الذي راح يستاف الهواء، صاعدين به التل إلى سانتا لوتشيا، وأرقدوه عند بوابتها. والآن ألقت ابنة صانع المظلات التي غصت بالدمع، وكانت تضم وليدتها إلى صدرها - ألقت بنفسها عند قدمي كبير الآباء، وتقدمت باعتراف غير متوقع فيما يتعلق بعلاقتها الغرامية. قالت: «هذه الوليدة ليست طفلة لورنزو، وإنما الحقيقة هي أنني أنجبتها من

علاقة حميمة مع ابن الجيران». برهن ارتجاف صوت المرأة المشوشة وبريق عينيها الغارقتين في الدمع على نحو لا يدع مجالاً للشك على أنه ليس هناك ظل من زيف في اعترافها. وجعل هذا الاعتراف المذهل الصمت والذهول يخيمان على الآباء الذين وقفوا غير بعيد، وقد غاب عنهم إدراك ألسنة اللهب المتقدة والمتصاعدة نحو السماء.

جففت المرأة دموعها، وواصلت حديثها: «كان لورنزو مؤمناً إيماناً بالغ القوة بالله، وعاملني ببرود شديد إلى حد أنني حقدت عليه. وقد علقت الآمال على أنني بقولي إن الطفلة ابنته سأنتقم منه لبروده حيالي، ولكنه كان أكثر نبلاً من أن يكرهني للخطيئة التي اقترفتها، وقد خاطر بحياته، وأقدم على نحو متسامح على إنقاذ طفلتي من جحيم النيران. ومحبته وأعماله تجعلني أعجب به أشد الإعجاب. وعندما أفكر في خطيئتي الرهيبة، فإنني لا أعود أبالي أن تمزق مخالب الشيطان جسمي إرباً». ولم تكد تنهي اعترافها عن علاقتها الغرامية حتى ألقت نفسها على الأرض وقد انهمرت دموعها.

في تلك اللحظة علت الصيحات من أفواه الجموع: «إنه ضحية. إنه ضحية. بفعل محبته للخاطئة، تدنى بنفسه إلى التسول، متبعاً خطى مثل أعلى يحبه. ولكن ما من إنسان، بمن في ذلك كبير الآباء الذي كان يعتبره في مرتبة أبيه وسيميون

الذي اعتمد عليه كأخ له، لم يعرف ما يضمه فؤاده من أسرار. ماذا عساه يكون إلا ضحية؟».

لم يكن بمقدور لورنزو، فيما كان يصغى لاعتراف ابنة صانع المظلات بعلاقتها الغرامية، إلا أن يومىء إيماءة خفيفة. كان شعره قد احترق، ومست ألسنة اللهب بشرته، ولم يكن بوسعه أن يحرك يديه ولا قدميه. والآن لم تعد لديه قدرة على الحديث. ومضى صانع المظلات العجوز وسيميون اللذان مزق اعتراف المرأة فؤاديهما يقومان على رعايته بقدر ما في وسعهما وهما راكعان إلى جواره، وراحا يغسلان حروقه بدموعهما. ولكن أنفاس لورنزو غدت أقصر وأضعف مع كل لحظة تمر، وبدت النهاية جد قريبة. وكل ما ظل فيه بلا تغيير هو لون عينيه اللتين تشبهان النجوم، واللتين مضتا تتطلعان عالياً نحو السماء.

هتف كبير الآباء، الذي كان يصغي لاعتراف المرأة، وشعره الأشيب يتموج في العاصفة الليلية، وقد أدار ظهره إلى بوابة سانتا لوتشيا - هتف بالمرأة بصوت مهيب: «مباركون هم التوابون. كيف يمكن ليد إنسان أن تنزل العقاب بمن حلت بهم البركة على هذا النحو؟ من الآن فصاعداً ينبغي أن تلتزمي على نحو أفضل بوصايا الرب وتنتظري يوم القضاء العدل!» ثم أضاف: «لورنزو، إن تطلعك إلى القدوة الأسمى في سلوكك يعد فضيلة لا نظير لها في هذا البلد، وخاصة أنك في مقتبل العمر».

ماذا عساه يكون قد حدث؟ إن الأب الذي مضى في حديثه حتى هذا الموضع أغلق فمه فجأة، وراح يحدق في لورنزو بانتباه، كأنما رأى نوراً لاح له من السماء. لشد ما بدا مفعماً بالتبجيل والتوقير! كان ارتجاف يديه بالغ الغرابة. وما كانت الدموع لتكف عن الانهمار على خديه الناحلين. فجأة مضى صانع المظلات وسيميون يحدقان، وتتبعت عيون الجميع نظراتهم إلى نهدين نقيين، لدنين، برزا وسط الخرق التي كست صدر الملاك الذي كان راقداً الآن في صمت عند بوابة سانتا لوتشيا، مستحماً في سنا الحريق. الآن لم يعد يخفى جمال وجلال محيا لورنزو على الرغم من الحروق المؤلمة التي أصابته. وربما لم تنقض سوى لحظة - بدت كأنها دهر - قبل أن يدرك الجمع بأسره أن لورنزو لم يكن فتى، وإنما فتاة. نعم. كان لورنزو فتاة! كان لورنزو فتاة! انظروا! تحلق الآباء وألسنة اللهب تضطرم وراءهم حول لورنزو، ووقفوا في عجب وذهول، وقد تجمدت عيونهم على الضحية. لقد كان لورنزو، الذي طرد من سانتا لوتشيا بالاتهام الزائف بالزنا، فتاة جميلة تنتمي إلى هذا البلد، تماماً مثل ابنة صانع المظلات نفسها.

يقال إن تلك اللحظة أثارت في نفوسهم قدراً هائلاً من الروع، كما لو أن صوتاً من عليين قد دوى من وراء قوس السماء المتشحة نجوماً. أحنى الجمع الواقف أمام سانتا لوتشيا

الرؤوس، كما لو كانت رؤوس سنابل قمح هبت عليها الريح، وجثوا حول لورنزو. وكل ما كان يتناهي للأسماع هو هسهسة ألسنة اللهب المترامية في اتقادها نحو عنان السماء المتشحة بالنجوم وبكاء الناس غير بعيد عن المكان. وربما كان البكاء صادراً عن ابنة صانع المظلات، أو عن سيميون الذي كان صديقاً طيباً للورنزو كما لو أنه كان أخاً حقيقياً له. وسرعان ما اخترق الصمت صوت الابتهال المهيب الذي راح يردده كبير الآباء، الذي رفع يديه ضارعاً. وعندما انتهى ابتهاله، هتف «لورنزو!» وعندئذ لفظت الفتاة ذات العينين النجلاوين نفسها الأخير. بابتسامة واهنة حافلة بالسلام ارتسمت على شفتيها، وهي تحدق إلى عليين بعيداً فيما وراء الليل الأسحم.

ما من شيء آخر عُرف عن حياة هذه الفتاة. ولكن ماذا لو كان الأمر كذلك؟ إن سمو الحياة يصل ذروته في أكثر لحظات الإلهام قرباً من القلب، والإنسان سيجعل حياته جديرة بأن تعاش إذا رفع بوجهه عالياً إلى السماء المتشحة بالنجوم، متجاوزاً الاهتمامات الدنيوية المظلمة لهذه الحياة، ليعكس على صقال زبدها البللوري سنا بدر لم يطل بعد. ومن هنا أليس من عرفوا اللحظات الأخيرة للورنزو هم الذين عرفوا حياتها بأسرها؟

(*) لديّ ضمن مجموعة كتبي كتاب بعنوان «الأساطير الذهبية» أصدرته إحدى المؤسسات في نجازاكي، غير أنه لا يحتوي على الأساطير الذهبية المنتمية إلى غربي أوروبا فقط. وهو لايتضمن كلمات القديسين الأوروبيين وأعمالهم فحسب، وإنما هو يضم كذلك الأعمال الدينية التي قام بها اليابانيون، والتي يفترض أنها تخدم الأغراض التنويرية.

ويتألف هذا الكتاب من مجلدين يضمان الجزء الأول والجزء الثاني، وهو مطبوع على ورق «مينو» (وهو نوع من الورق الياباني الخشن) بأسلوب «هيراجانا» (وهو شكل متصل من أشكال الأبجدية المقطعية اليابانية) مختلط بحروف صينية في أسلوب متصل. وصف الحروف بالغ التميز إلى حد يجعلنا نتساءل عما إذا كان مطبوعاً من عدمه. وفي الصفحة التي تحمل العنوان كتب العنوان اللاتيني بصورة متصالبة، وتحت العنوان كتب سطران صينيان رأسيان «طبع في بداية مارس ١٥٩٦». وعلى كل جانب من جانبي تاريخ الطبع كانت هناك صورة لملاك ينفخ في صور. وهي فجة للغاية من الناحية الفنية، ولكن لها سحرها الخاص. وصفحة العنوان الخاصة بالمجلد الثاني متطابقة مع نظيرتها في المجلد الأول عدا القول «طبع في منتصف مارس ١٥٩٦». =

= يضم كلا المجلدين حوالي ستين صفحة، ويحتوي المجلد الأول أساطيره الذهبية في ثمانية فصول، ويضمها المجلد الثاني في عشرة فصول. ويستهل كل فصل بمقدمة دبجها كاتب مجهول وفهرست تتخلله كلمات لاتينية.

بالنسبة للباحث الياباني، فإن كتابة المقدمة تترك شيئاً بغير تحقق. وهنا وهناك نجد مثل هذه التداخلات للترجمة الحرفية للكتابة الأوروبية التي تجعلنا نتساءل عما إذا لم يكن قد كتبها راهب من الجزويت.

ونص «الضحية» الوارد أعلاه مأخوذ من المجلد الثاني من «الأساطير الذهبية». وهذه القصة يفترض أنها سجل صادق لواقعة حدثت في نجازاكي في تلك الأيام. غير أن اندلاع الحريق الهائل على نحو ما سجل في هذه القصة هو أمر يستحيل التحقق منه بالإحالة إلى «تتويعات ميناء نجازاكي» وغيره من الكتب. ويزيد عن ذلك صعوبة التاريخ المحدد لاندلاع ذلك الحريق.

فيما يتعلق بالنشر، فقد غامرت بإضافة بعض المحسنات الأدبية إلى «الضحية» وآمل أن الأسلوب البسيط والمصقول الذي كتب به الأصل لم يحتجب في غمار ذلك.

(أغسطس ١٩١٩)

كيسا وموريتا

الجـزء الأول

يمضي موريتو متجولاً فوق أوراق الشجر الساقطة خارج السور المحيط بداره، وهو في حالة مزاجية كئيبة.

مناجـاة موريتـو

هو ذا القمر يبزغ الآن. عادة أنتظر بزوغه بصبر نافذ، لكنه الليلة هزني بمزيد من الرعب، وتأخذني الرعدة عندما أفكر في أن الليلة ستقضي عليّ، وتحولني إلى قاتل تعس. أتصور هاتين اليدين عندما تتحولان إلى اللون القرمزي بفعل الدم! أي مخلوق ملعون سوف أبدو بالنسبة لنفسي عندئذ! لن يتلوى فؤادي ألماً على هذا النحو لو أنني قتلت عدواً أمقته، ولكن الليلة يتعين عليّ أن أقتل رجلاً لست أكرهه.

لقد عرفته منذ زمن طويل، وذلك على الرغم من أنني لم أعرف اسمه إلا مؤخراً، وهو واتارو زايمون - نو - جو. وقد عرفت محياه الوسيم، منذ أبعد زمن يمكن للذاكرة أن تعيه. صحيح أنني عندما اكتشفت أنه زوج كيسا انتقدت غيرة لبعض الوقت، لكن غيرتي انحسرت الآن بالفعل، ولم يعد لها أثر في ذهني أو فؤادي. وهكذا فإنني لا أكن لخصمي في الهوى كرهاً ولا ضغينة، بل إنني أفكر فيه على نحو عطوف. وعندما أبلغتني عمتي كوروموجاوا كيف أنه لم يدخر جهداً في محاولة كسب حب كيسا، أحسست بالتعاطف معه. وقد فهمت أنه انطلاقاً من رغبته الغامرة في الزواج منها مضى إلى حد تكبد عناء تعلم نظم الشعر. وليس بمقدوري تصور ذلك الرجل العادي والبسيط، إلى حد الابتذال، وهو عاكف على نظم قصائد الحب، ورغماً عني تعلو ابتسامة شفتي على الرغم مني، وهذه الابتسامة ليست ابتسامة سخرية، ذلك أنني تؤثر في نفسي رقة رجل يوغل في المسير كثيراً على هذا النحو ليفوز بامرأة، بل إن من الممكن أن حبه المفعم عاطفة الذي يدفعه للإعلاء من شأن محبوبتي كيسا يحقق لي بعض الإشباع والرضا.

لكن هل أحبُ كيسا حقاً؟ إن علاقتنا الغرامية يمكن تقسيمها إلى مرحلتين، هما الماضي والحاضر، فقد أحببتها قبل أن يتزوجها واتارو، أو أنني حسبت أنني أحببتها. ولكن الآن، وفيما

أتأمل قرارة فؤادي، فإنني أجد أن هناك العديد من الدوافع. ما الذي أردته منها؟ لقد كانت تنتمي إلى نوعية من النساء أحسست حيالها برغبة حسية حتى في الأيام التي كنت فيها عفيفاً. وحتى إذا سمحنا بالتجاوز في الطرح، فإن حبي لها لم يكن يتجاوز تجميلاً للدافع الذي حدا بآدم للانطلاق نحو حواء. وهذا جلي من الشكوك التي ساورتني حول مواصلة حبها، إذا أشبعت رغبتي فيها. وعلى الرغم من أنني واصلت التفكير فيها على امتداد ثلاث سنوات، بعد انتهاء علاقتنا، إلا أنه ليس بمقدوري القول على وجه اليقين إنني أحبها. وفي غمار ارتباطي اللاحق بها، كان أعظم ما أسفت عليه هو أنني لم أعرفها بصورة حميمة. وإذ عذبني السخط فقد ترديت إلى وهدة العلاقة الراهنة، التي أرعبتني، والتي كنت أعرف على الرغم من ذلك أنها لابد أن تحدث. والآن أتساءل من جديد: «هل أحبها حقاً؟».

عندما التقينا مجدداً، بعد ثلاث سنوات، في الاحتفال بالانتهاء من إقامة جسر واتانابي، لجأت إلى أنواع الأساليب كافة للحصول على فرصة للقائها سراً. وفي النهاية كلل مسعاي بالنجاح. ولم أفلح في لقياها فحسب، وإنما ظفرت بجسدها، تماماً على نحو ما كنت آحلم. وفي ذلك الوقت، لم يكن الأسف على أنني لم أعرفها جسدياً هو كل ما تملكني وسيطر عليّ.

وعندما جلست بقربها في الغرفة المفروشة بالحصر في دار كورروموجاوا، لاحظت أن جانباً كبيراً من أسفي كان قد انحسر بالفعل، وربما كانت رغبتي قد أضعفت من خلال الحقيقة القائلة إنني لست عفيفاً، ولكن السبب الأساسي تمثل في أنها لم تكن ما توقعت أن تكونه. عندما جلست في مواجهتها، لم أجد أنها صورة للجمال الفاتن الذي تخيلته على امتداد السنوات الثلاث الماضية، وإنما كانت أبعد ما تكون عن المعبودة التي أعليت من شأنها في فؤادي. كان محياها، المكسو بطبقة كثيفة من الذرور الثقيل، قد فقد الكثير من روائه وفتنته اللدنة، وتكونت هالات مسودة تحت عينيها. وتمثل ما ظل فيها بلا تغيير في عينيها الصافيتين النجلاوين، وعندما رأيتها في هذا الضوء الجديد، صدمت، وعلى الرغم مني لم أستطع إلا الإشاحة بناظريَّ بعيداً عنها.

كيف تأتّى إذن أنني ضاجعت امرأة لا يربطني بها إلا هذا القدر القليل للغاية من التواصل؟ لقد حركتني أولاً رغبة غريبة في التغلب على الرغبة التي تعلق بها فؤادي في السابق. جلست أمامي وجهاً لوجه، وسردت على مسامعي قصة بولغ فيها عمداً عن حبها لزوجها، فلم تترك إلا طنيناً أجوف في أذني. حدثت نفسي قائلاً: «إن لديها فكرة مفعمة بالغرور عن زوجها». وساورني الشك أيضاً في أن هذا يستمد حافزه من رغبتها في

أن تؤجج لهيب رغبتي. وفي الوقت نفسه استبدت بي بمزيد من القوة رغبتي في تعرية زيفها. لماذا أعتبره زيفاً؟ لو أنك حدثتني، أيها القارىء العزيز، بأن غروري قد قادني إلى التشكك في زيف قولها، فليس بمقدوري إنكار اتهامك. وعلى الرغم من ذلك فقد اعتقدت وقتها، ولا أزال أعتقد الآن، أن ما قالته كان كذبة.

لكن الرغبة في الغزو لم تكن هي كل ما سيطر عليَّ في تلك اللحظة، وإن حمرة الخجل لتعلوني عندما أذكر الأمر، فقد استبدت بي الشهوة. لم يكن ما أحسست بالأسف عليه هو أنني لم أعرف جسدها فحسب، وإنما كان شهوة وضيعة بجد ذاتها، والتي لم تقتض أن يكون الطرف الآخر تلك المرأة. ربما لم يكن رجل اتصل بامرأة في مبنى أكثر وضاعة مما كنت عليه آنذاك.

أياً ما كان الأمر، فإنني أقمت علاقة مع كيسا انطلاقاً من العديد من الدوافع، أو بالأحرى أنني دنستها. وعودة إلى السؤال الذي سبق لي أن طرحته، فإنني لست بحاجة الآن إلى أن أسأل نفسي عما إذا كنت قد أحببتها. عندما انتهى الأمر، رفعتها عنوة عالياً بين ذراعي، هذه المرأة التي ألقت نفسها على الأرض منخرطة في البكاء. لقد بدت آنذاك أكثر خزياً وعاراً مني. لقد أشار شعرها المشعث ولحمها المتفصد عرقاً وكل شيء فيها إلى قبح ذهنها وبدنها. ولن يكون من قبيل الخطأ القول إنني قد نبتت في فؤادي كراهية جديدة لها منذ ذلك اليوم. والليلة

سأقتل رجلاً لا أكرهه من أجل امرأة لا أحبها.

همست في أذنها: «دعينا نقتل واتارو!». لابد أنني كنت قد جننت لأطرح مثل هذا الاقتراح الوحشي. رحت أهمس في أذنها، مذهولاً عما حولي، برغبتي في الماضي في تحدي واتارو واستدراجه للقتال والفوز بحبها. أياً كان الأمر فقد همست: «دعينا نقتل واتارو!». من المؤكد أنني همست بذلك بأسنان متقلصة، رغماً عن نفسي. عندما أعود الآن بذهني للوراء وأتأمل الأمر، فإنني أجد أنه ليس بمقدوري أن أحدد ما الذي دفع بي للقيام بمثل هذا الشيء الأهوج. وكل ما بوسعي التفكير فيه، في معرض تفسيره، هو أنني أردت أن أصلح أمر العلاقة الغرامية في الوقت الراهن، وأنني كلما ازددت ازدراء وكرهاً لها، ازددت تعجلاً في جلب بعض العار عليها. وما من شيء كان يمكن أن يكون أكثر ملاءمة لتحقيق هذه الأغراض من قتل الزوج، الذي تزعم أنها تحبه، وأن انتزع موافقتها طوعاً أم كرهاً. وهكذا، شأن رجل في غمار كابوس، لا أبد أنني أقنعتها بأن نقترف سوياً جريمة القتل التي أرغب فيها. وإذا لم يكف ذلك لتفسير دافعي لاقتراح قتل واتارو، فإنه ما من تفسير آخر يمكن اجتراحه، ما عدا وجود قوة يجلها البشر (ربما شيطان أو هولة) دفعتني إلى المضي في مسار الشر. رحت بصورة دائبة ومتكررة أهمس في أذنها بالشيء نفسه.

رفعت محياها، أخيراً، وقالت: نعم، لابد أن تقتل واتارو». لم تكن موافقتها الحاضرة مفاجأة بالنسبة لي، لكنني رأيت ألقاً في عينيها لم أكن قد لاحظته من قبل. زانية - ذلك هو الانطباع الذي أعطتني إياه في ذلك الوقت. التمعت خيبة أمل فورية في ذهني وفزع، نعم، ازدراء في ذهني المحموم. كان حرياً بي أن ألغي وعدي في التو، لو أن ذلك كان ممكناً، عندئذ كان بمقدوري أن أصفها بأنها زانية، ويلوذ ضميري بملاذ الغضب من أجل الحق، لكنني عجزت عن القيام بذلك. وأعترف بأنني أدركت عن طواعية استحالة ذلك في اللحظة التي حدقت خلالها فجأة فيّ. لقد تغير موقفها، كأنما رأت ما هو كامن في أغوار قلبي، فترديت إلى المحنة المحزنة المتمثلة في تحديد موعد لقتل زوجها، بسبب خوفي من أن تنتقم مني، إذا لم أقم بتنفيذ الجانب الخاص بي من الصفقة. الآن غدت لهذا الخوف قبضة حازمة ومستمرة عليّ. اضحكوا، إن طاب لكم ذلك، من جانبي، هذا تصرف امرىء لم يعرف مدى ما يمكن أن تكون عليه خليلته من وضاعة. رحت أحدث نفسي يائساً، متطلعاً إلى عينيها الباكيتين بلا دموع: «إذا لم أقتل زوجها، فإنها ستقتلني بطريقة أو أخرى. لابد لي من قتله، وإلا فإنها ستقتلني». بعد أن أقسمت اليمين المغلظة، ألم أرصد ابتسامة على شفتيها وغمازه تتكون على خدها الشاحب؟ آه، بسبب هذا التعهد الملعون سأضيف

جريمة قتل وحشي إلى أكثر القلوب التي يمكن تخيلها سواداً. ولو أنني لم أف بهذا الموعد الوشيك الليلة.. لا إن يميني المغلظة تحول دون ذلك. هذا يفوق ما يمكنني احتماله. والأمر يعود إلى شيء آخر، فأنا أخشى انتقامها. هذا صحيح تماماً. ولكن هناك شيئاً آخر يدفعني للتحرك دفعاً. ما هو؟ ما هي تلك القوة الهائلة التي ترغمني إرغاماً، أنا ذلك الجبان، على قتل إنسان بريء؟ ليس بوسعي القول. ليس بوسعي القول.. لا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. إنني أزدريها. إنني أخشاها. مع ذلك، فقد يكون الأمر راجعاً إلى أنني أحبها.

يكف موريتو، الذي يواصل التجوال في المكان نفسه، عن الحديث. ويأتي إنشاد قصيدة تغن بالبطولة من رحاب الليل:

الذهن البشري غارق في الظلام،

وما من ضوء يتألق عليه.

يتقد ناراً من هموم دنيا،

سرعان ما تذوي في لمحة.

«الجزء الثاني»

في الليل، تحت مصباح، تعض كيسا الغارقة في تأملاتها ردن ردائها، وتقف، وظهرها باتجاه المصباح.

ترى هل سيجيء أم لا. من غير المحتمل أنه لن يجئ. القمر يغوص بالفعل في طريقه إلى الاحتجاب. ولكن ما من وقع قدم يسمع، ولذا فربما يكون قد غيّر رأيه. ولئن لم يجئ.. لسوف أضطر إلى أن أعيش حياة الخزي والعار يوماً وراء الآخر، مثلما عاهرة. كيف يمكن أن أتردى على هذا النحو في العار والشر؟ لن أكون أفضل من جثة ألقيت على قارعة الطريق، لسوف ينالني الخزي وتدوسني الأقدام،حين يتجلى عاري للعيان. ومع ذلك فلسوف أضطر لالتزام الصمت كأنني بلهاء. وفي تلك الحالة سأحمل معي ندمي إلى ما يتجاوز قبري. إنني على يقين من أنه سيجيء. لقد أصبحت مقتنعة بذلك منذ اللحظة التي حدقت خلالها في عينيه. إنه يخافني. يكرهني، يزدريني، ومع ذلك يخافني. ولو أنني كان بمقدوري الاعتماد على نفسي، لما استطعت الوثوق به. لكنني أعتمد عليه، أعتمد على أنانيته، أعتمد على الخوف الحقير الذي تبثه الأنانية في نفسه.

لكن الآن، وليس بمقدوري الاعتماد على نفسي، فأي مخلوقة تعسة أنا! حتى ثلاث سنوات مضت، كنت أتمتع بالثقة في نفسي، وفي المقام الأول بالثقة في جمالي! سيكون أقرب إلى الصواب القول: «حتى ذلك اليوم» من القول «حتى ثلاث سنوات مضت» في ذلك اليوم الذي التقيته في غرفة بدار عمتي،

أوضحت لي نظرة سريعة إلى عينيه قبحي مرتسماً على صقال مرآة ذهنه. مضى يحدثني بكلمات مفعمة حباً وإطراء، وقد بدا وكأن ليس في الأمر شيء. ولكن كيف يمكن لفؤاد امرأة أن يقر له قرار بعد أن تكون قد عرفت قبح شخصها؟ لقد جرح مشاعري، وأدخل الرعب إلى نفسي، وغمرت بالحزن غمراً. كم كان أفضل عدم الارتياح الفظيع المرتبط بخسوف القمر الذي رأيته عندما كنت طفلة في أحضان مربيتي مقارنة باليأس الرهيب الذي خيم على ذهني في تلك اللحظة! لقد تبددت كل الرؤى والأحلام التي كانت في فؤادي. وفي هدوء غمرتني وحدة فجر مطير بعباءة من العزلة، وفي نهاية المطاف منحت جسدي الذي كان كالجثة لأحضان رجل لم أعشقه، لأحضان رجل فاسق يكرهني ويزدريني. ألم يكن بمقدوري احتمال وحدتي حيث أن قبحي تم إيضاحه بجلاء لي؟ هل حاولت أن أدفن كل شيء في تلك اللحظة المهتاجة من وضع وجهي على صدره؟ أم أنني قد دفعتني رغبتي المخزية مثلما دفعته رغبته؟ إن مجرد التفكير في ذلك يغمرني بالشعور بالعار! العار! العار! وبصفة خاصة عندما انتزعت نفسي من أحضانه. لشدما استبد بيَّ الشعور بالعار.

دفع الضيق والوحدة إلى عينيّ بدموع لا نهاية لها، على الرغم من الجهد الذي بذلته حتى لا أبكي. لم يستبد الحزن بي لأن العار لحقني فحسب، وإنما تعذبت وتألمت في المقام الأول لأنني

تعرضت للازدراء، كما لو كنت كلباً مجذوماً يكره ويعذب. ما الذي فعلته منذ ذلك الحين؟ ليست لديّ إلا الذكرى الأكثر شحوباً عن ذلك، كما لو كانت شيئاً ينتمي إلى الماضي البعيد. ولست أذكر إلا صوته الخفيض وهو يهمس: «دعينا نقتل واتارو!» وشاربه يمس أذني فيما كنت أنتحب. في اللحظة التي استمتعت لتلك الكلمات، أحسست بتجدد الحيوية على نحو غريب. نعم، أحسست بالحيوية والتألق، مثلما سنا بدر شاحب، إذا كان سنا البدر يمكن أن يوصف بالتألق. في نهاية المطاف، ألم تبعث هذه الكلمات الراحة في نفسي؟ آه، ألست امرأة، مخلوقة، تشعر بالنشوة في غمار عشقها من قبل رجل حتى إذا اضطرت لقتل زوجها؟

واصلت البكاء لبعض الوقت بشعور موحش وحيوي مثلما سنا البدر. متى حدث أن وعدت بأن أقدم يد العون في قتل زوجي هذا؟

لم يطرأ زوجي على بالي حتى ذلك الوقت. وبأمانة أقول إنه لم يطرأ على بالي «حتى ذلك الوقت». ذلك أنه حتى ذلك الوقت كان ذهني مشغولاً كلية بنفسي وبعاري، ثم رأيت صورة محيا زوجي الباسم. ربما في اللحظة التي تذكرت خلالها محياه التمعت الخطة في ذهني. كنت في ذلك الوقت قد عقدت العزم بالفعل على الموت، وكنت سعيدة بقراري. ولكنني عندما كففت عن البكاء، رفعت محياي، وتطلعت إلى وجهه لأجد قبحي

مرتسماً على مرآته، فساورني الشعور كما لو أن نشوتي كلها قد انحسرت. ذكرني ذلك بسواد خسوف القمر الذي رأيته مع مربيتي. حرَّر ذلك، إن صح التعبير، كل الأرواح الشريرة القابعة تحت غطاء نشوتي في الحال. هل صحيح حقاً أنني بسبب حبي لزوجي سأموت من أجله؟ لا، فتحت هذه الذريعة المعقولة فحسب أريد أن أكفر عن خطيئتي المتمثلة في مضاجعة رجل آخر. ولما كنت أفتقر للشجاعة اللازمة للانتحار، فقد ساورتني الرغبة الوضيعة في أن أترك انطباعاً طيباً لدى الجمهور، فربما يمكن لوضاعتي تلك أن تغتفر. ألم أكن تحت ذريعة الموت من أجل زوجي أخطط للانتقام لنفسي من كره عشيقي وازدرائه لي وشهوته الشريرة؟ إن هذا تشهد عليه الحقيقة القائلة إن نظرة سريعة إلى محياه قد أطفأت شرارة الحياة الغامضة التي تشبه سنا البدر الشاحب، وجمدت بالحزن فؤادي. لسوف أموت، ليس من أجل زوجي، وإنما من أجل نفسي. سأموت لأعاقب عشيقي لأنه أوجع فؤادي ولضيقي بأنه دنس جسمي. آه، ليس قوام الأمر أنني لست جديرة بالحياه فحسب، وإنما أنني لست جديرة بالموت كذلك.

لكن الآن لشد ما هو أفضل أن أموت موتاً مجللاً بالعار على أن أحيا! لقد ابتسمت ابتسامة مغتصبة ووعدت مراراً وتكراراً بأن أقتل زوجي معه، وبما أنه حاضر البديهة، فلابد أنه قد

أدرك من كلماتي ما هي العواقب التي ستترتب على عدم وفائه بوعده. هكذا فإنه يبدو من المستحيل أنه بعد قطع مثل هذا الوعد سينكص عن الوفاء به. أهذا زفيف الريح؟ عندما أفكر في أن محنى منذ ذلك اليوم توشك أخيراً على الانتهاء الليلة، فإن الارتياح يغمرني. من المحقق أن الغد سينثر نوره البارد على جثتي المجردة من الرأس. ولو أن زوجي رآها، فإنه سوف.. لا، لن أفكر فيه. إن زوجي يحبني، لكنني ليست لدي القوة لأبادله الحب. فبوسعي أن أحب رجلاً واحداً، وهذا الرجل عينه قادم ليقتلني الليلة. حتى هذا النور المنبعث من شمعة الأسل متوهج للغاية بالنسبة لي، حيث يستبد بيَّ العذاب الذي يوقعه عشيقي بي.

تنفخ كيسا الشمعة، فينطفىء نورها. وسرعان ما يند صرير مصراع النافذة الواهن، وينهل سنا البدر الشاحب.

التنين

قال أوجي ديناجون تاكاكوني(*): «ليباركني الرب! في غمار استيقاظي من حلم تراءى لي خلال قيلولتي، يساورني الشعور بأن الجو حار بصفة خاصة اليوم. وما من نسمة تهب لتهز زهور الوستارية المتدلية من فرع شجرة الصنوبر. وحفيف الربيع الذي يجعلني أشعر بالانتعاش في أوقات أخرى يغرقه على وجه التقريب طنين زيزان الحصاد، ويبدو أنه لا يضيف إلا المزيد إلى الحر المتقد. والآن سأجعل الفتية من الخدم يحركون الهواء بالمروحة.

(*) أوجي ديناجون تاكاكوني (١٠٨٧ - ١١٦٠) كان «ديناجون» هو منصب كبير مستشاري الدولة، وهو منصب حكومي في الأيام الخالية. وقد ارتبط اسم أوجي تاكاكوني، مؤلف «كونجاكو مونوجاتري «تقليدياً، وإن لم يكن بصورة أصيلة بكونه مؤلف «أوجي شويشو» (لمحات متألقة من حكايات أوجي) الذي استقى منه أكوتاجاوا هذه القصة.

آه، تقولون إن الناس في الشوارع قد تجمعوا! لسوف أمضي بدوري إذن، أيها الفتية، اتبعوني، ولا تنسوا جلب المراوح الكبيرة!

تحياتي. إنني تاكاكوني. أعذروني على خفة ملابسي!

اليوم لدىَّ طلب أتقدم به لكم، لذا جعلت عربتي تتوقف عند مشرب شاي أوجي. وقد كنت أفكر، مؤخراً، في القدوم إلى هنا لتأليف كتاب قصص، مثلما يفعل آخرون. ولكن لسوء الطالع فإنني لا أعرف قصصاً جديرة بكتابتها. ولما كنت كسولاً، فإنني يضجرني أن أقدح زناد فكري في هذا الصدد، ولذا فإنني أعتزم اعتباراً من اليوم جعلكم تروون على مسامعي القصص العتيقة، لكي أدونها في كتاب. ولما كنت، أنا تاكاكوني، موجوداً على الدوام في البلاط الإمبراطوري، فإنني سأتمكن من أن أجمع من سائر الأرجاء العديد من الطرائف غير المألوفة والقصص المثيرة للفضول. ولذا فهل ستقومون، أنتم أيها الناس الطيبون، على الرغم من أنكم ربما تكونون منزعجين، بتلبية مطلبي؟

ستلبون طلبي؟ شكراً جزيلاً لكم! سأصغى إذن إلى قصصكم واحدة إثر أخرى.

ها هنا، أيها الفتية، اشرعوا في استخدام مراوحكم الكبيرة، لكي ينساب النسيم في القاعة الكبيرة، سيجعلنا هذا جميعاً نشعر بالانتعاش قليلاً. أنت يا صانع الحديد، وأنت أيها الخزَّاف، لاتترددا! اقتربا كلاكما من هذا القمطر. تلك المرأة

التي تبيع السوشي(*)، إذا كانت أشعة الشمس أقوى مما ينبغي بالنسبة لك، فمن الخير أن تضعي دلوك في ركن الشرفة، وأنت أيها الكاهن، نحِّ عنك طبلك الذهبي اليدوي. وأنت أيها الساموراي، وأنت أيها الكاهن الجبلي هناك، هل فردتما حصركما؟

هل أنتم جاهزون جميعاً؟ إذا كنت جاهزاً أيها الخزَّاف، بما أنك الأكبر سناً، فارو لنا أي قصة تفضلها!».

رد العجوز قائلاً: «إننا ممتنون لكم أشد الامتنان لتحيتكم المفعمة بالمجامله. لقد قلتم سعادتكم، على نحو كريم، إنكم ستعدون كتاباً يضم قصصاً مما سنرويه نحن البسطاء على مسامعكم. هذا شرف أعظم كثيراً ممااستحقه. ولكن لو أنني رفضت، فإن ذلك لن يدخل السرور على نفس سعادتكم، ولذا فإنني سأسمح لنفسي بأن أروي على مسامعكم قصة عتيقة، حمقاء. وقد تكون مضجرة إلى حد ما، ولكن تفضلوا بالإصغاء لبعض الوقت لقصتي.

بدأ العجوز في سرد قصته.

في الأيام الخوالي، عندما كنت صغيراً للغاية، عاش في نارا كاهن يدعى كورودو توكوجايو، كان له أنف كبير بصورة غير

(*) السوشي أرز مغلي، منكه بالخل، غالباً ما يضغط في شكل كرات، ويقدم مع سمك وبيض مقلي.. الخ.

مألوفة. وقد التمع مقدم أنفه القرمزي على نحو مخيف طوال العام، كأنما لسعه دبور. وهكذا أطلق عليه أهل نارا لقب أوهانانو كورودو توكوجايو(*). ولكن لأن هذا اللقب كان طويلاً للغاية، فقد توصلوا إلى تسميته هانازو(**). وقد رأيته بنفسي مرتين في معبد كوفوكو في نارا. لقد كان له أنف أحمر بديع للغاية، إلى حد أنني بدوري فكرت بأنه ربما يمكن يدعى على نحو ساخر بهانازو.

ذات ليلة، أقبل هانازو، أي أوهانا -نو كورودو توكوجايو، الكاهن، وحيداً إلى بحيرة ساروساوا من دون أن يصحبه تابعوه، وأقام على ضفة البحيرة أمام شجرة الصفصاف الباكية لافتة كتب عليها بحروف عريضة: «في الثالث من مارس سيطلع تنين من هذه البحيرة». ولكنه في حقيقة الأمر لم يدر ما إذا كان هناك تنين حقاً في بحيرة ساروساوا، ولا حاجة للقول إن صعود تنين إلى السماء في الثالث من مارس كان كذبة خالصة. وكان الأمر سيكون أكثر يقينية لو أنه كتب يقول إنه ما من تنين سيصعد للسماء. وكان سبب إقدامه على هذه الحيلة الخبيثة، التي لاموجب لها، أنه كان مستاء من كهنة نارا، الذين درجوا

(*) أوهانا - نو كورودو توكوجايو. كلمة «أوهانا» تعني أنفاً كبيراً. و«كورودو» تعني مسئولاً في الأرشيفات الإمبراطورية. «توكوجايو» قد تعني شخصاً برع في ألوان التقشف الدينية.

(**) قد تعني كلمة «هانازو» الشخص ذا الأنف الكبير.

على السخرية من أنفه، وقد خطط للاحتيال عليهم هذه المرة والسخرية منهم والضحك من قلبه. ولكن هذه قصة عتيقة، وكان الناس الذين يقومون بمثل هذه الحيلة كثيرين.

في اليوم التالي، كانت عجوز درجت على المجيء للصلاة في معبد (كوفوكو) كل صباحاً هي أول من عثرت على اللافتة. وعندما اقتربت من البحيرة التي كان الغمام لايزال يلفها، وهي تتكىء على عصا من الخيزران، وفي يدها مسبحة، عثرت على اللافتة، التي لم تكن قد رأتها بالامس تحت شجرة الصفصاف الباكية. راحت تتساءل عن السر في أن لافتة تعلن عن إقامة صلاة قد وضعت في مثل هذا المكان الغريب. ولكن بما أنها لم يكن بوسعها قراءة أي من حروف اللافتة، فقد أوشكت على تجاوزها، حينما التقت لحسن الحظ بكاهن ملتف بردائه أقبل من الاتجاه المعاكس، فجعلته يقرأ اللافتة لها، حيث كتب عليها: «في الثالث من مارس سيطلع تنين من هذه البحيرة» وقد دهشا حيال هذا.

ذهلت العجوز، فردت جسمها المحني، تطلعت إلى محيا الكاهن، وتساءلت: «هل من الممكن أن يحيا تنين في هذه البحيرة؟» اتخذ الكاهن لنفسه مظهراً أكثر تماسكاً، وقال لها: «في أزمان سالفة، كان لعلاّمة صيني معيّن ورماً فوق جفنه يؤلمه على نحو فظيع. وذات يوم ادلهمت السماء فجأة، وانهمر المطر

مدراراً مصحوباً بالرعد. ثم في التو انفجر الورم، ويقال إن تنيناً صعد إلى السماء مخلفاً وراءه سحابه. وبما أن تنيناً أمكنه أن يحيا في ورم، فإن عشرة من التنانين يمكنها العيش بصورة طبيعية في قاع بحيرة كبيرة كهذه». بهذه الكلمات قام بتبسيط الأمرلها. ذهلت المرأة العجوز التي كانت مقتنعة على الدوام بأنه ما من كاهن يكذب أبداً، وقالت: «فهمت. الآن وقد ذكرت هذا الأمر، فإن لون الماء هنالك يبدو مريباً». وعلى الرغم من أن الثالث من مارس لم يكن قد حل بعد، فقد بادرت إلى الابتعاد مسرعة، من دون أن تكترث إلا بالكاد باستخدام عصاها، ومضت تلهث مغمغمة بابتهالاتها، تاركة الكاهن وراءها وحيداً.

لولا الناس، الذين كانوا حول الكاهن صاحب الحيلة، لكان قد استلقى من فرط الضحك، ولم يكن هذا إلا أمراً طبيعياً، حيث أنه لم يكن إلا كاتب اللافتة، أي كورودو توكوجايو، الملقب بهانازو. وكان يتنزه حول البحيرة، وفي ذهنه الفكرة المنافية للعقل القائلة إن بعض الأشخاص السذج قد يستدرجهم الإخطار المكتوب على اللافتة التي وضعها البارحة. وبعد أن غادرت العجوز المكان، وجد مسافرة مبكرة يصحبها خادم حمل أمتعتها على كاهله. وكانت ترتدي تنورة مزخرفة بأشكال حشرات، ومضت تقرأ اللافتة من تحت قبعتها المتخذة من البردي. ثم وقف الكاهن، وقد قمع في حذر وبجهد كبير ضحكته، أمام

اللافتة متظاهراً بأنه يقرأها، وبعد أن استاف الهواء بأنفه الأحمر، عاد إلى مهل باتجاه معبد كوفوكو، ثم أمام بوابة المعبد الجنوبية الكبيرة التقى بمحض الصدفة بالكاهن المسمى إيمون، الذي يقيم معه في الصومعة ذاتها التي يقطنها.

قال إيمون، مجعداً جبينه الداكن، الغليظ، العنيد: «لقد نهضت مبكراً اليوم على غير المعتاد. الطقس ربما يتغير».

رد هانازو عن طواعية بنظرة العارف، مادأ أنفه: «قيل لي إن تنيناً سيصعد إلى السماء من بحيرة ساروساوا في الثالث من مارس».

لدى سماع ذلك، رمق إيمون هانازو بنظرة مدققة، يخالجها الشك، ولكنه سرعان ما تنحنح، وقال بنظرة ساخرة: «أحسب أنك قد تراءى لك حلم طيب، فقد قيل لي يوماً إن حلماً عن تنين يصعد إلى السماء هي بشارة ميمونة الطالع». قال هذا، وحاول تجاوز نانازو، مطوحاً برأسه التي تشبه الهاون، ولكن لابد أنه سمع هانازو، وهو يغمغم محدثاً نفسه: «الروح الضائعة تتجاور إمكانية الخلاص». التفت إلى الوراء بقوة بالغة، مفعمة بالكره، إلى حد أن دعامات خُفّيهِ الخشبيين المتخذة من خيوط القنب قد انشت للحظة، وسأل هانازو ملحاً بلهجة قوية، كمالو كان سيتحداه لخوض غمار جدل بوذي: «هل هناك أي برهان إيجابي على أن تنيناً سيصعد إلى السماء؟».

عندئذ، اصطنع هانازو مظهر التمالك التام لزمام النفس، وأشار نحو البحيرة، التي كانت الشمس قد شرعت بالفعل تلقى ضياءها عليها، ورد قائلاً وهو يحدق فيه متعالياً: «إذا كنت تشك في قولي، فما عليك إلا أن ترى اللافتة القائمة أمام شجرة الصفصاف».

على الرغم من عناد إيمون، فلابد أن أسلوبه الحاد المألوف في النقاش قد فقد القليل من قوة انطلاقه الأولية، فقد سأل كأنما أبهر ضوء قوى عينيه، بصوت لا ينقصه التخاذل: «طيب. هل وضعت مثل هذه اللافتة؟» وانطلق مبتعداً، وقد غلب عليه التأمل، وأمال رأسه التي تشبه الهاون إلى جانب.

ربما يمكنكم تخيل كم كان ذلك مسلياً بالنسبة لهانازو، الذي رآه وهو يبتعد، فأحس برغبة في هرش أنفه الأحمر بكامله، وبينما مضى يصعد الدرج الحجري للبوابة الجنوبية الكبيرة، وقد اكتست ملامحه بتعبير يوحي بالكآبه، لم يستطع كبح جماح نفسه، فانفجر ضاحكاً.

حتى في ذلك الصباح الأول، تركت اللافتة التي كتب عليها: «في الثالث من مارس سيطلع تنين من هذه البحيرة» تأثيراً كبيراً على الجمهور. وفي غضون يوم أو يومين، أصبح التنين في بحيرة ساروساوا مثار حديث مدينة «نارا» بأسرها. قال البعض بالطبع: «ربما كانت اللافتة خدعة اصطنعها أحدهم». انتشرت

في ذلك الوقت كذلك شائعة في كيوتو مفادها أن التنين في شينسين - إن قد صعد إلى السماء. وحتى من أكدوا أن نبوءة اللافتة هي حيلة أو خدعة شرعوا في المراوحة بين التصديق والشك فيما يتعلق بحقيقة الشائعة، وبدأوا في الاعتقاد أن مثل هذه الواقعة يحتمل أن تحدث.

عندئذ، على وجه الدقة، حدثت أعجوبة غير متوقعة، فبعد أقل من عشرة أيام، كانت ابنة كاهن شنتو في التاسعة من عمرها، والتي خدم أبوها مزار كاساجو، تغفو وقد وضعت رأسها في حجر أمها، عندما نزل تنين أسود كالسحابة من السماء، وقال بصوت بشري: «أخيراً، سأصعد إلى السماء في الثالث من مارس. ولكن لا عليكم، فإنني لا أتوقع أن أسبب لكم المتاعب، يا أبناء المدينة!». وفي اللحظة التي استيقظت خلالها الفتاة الصغيرة روت لأمها الحلم، وأثار الحديث عن أن فتاة صغيرة قد حلمت بالتنين الكائن في البحيرة ضجة كبرى في المدينة. وقد جرت المبالغة في القصة بشكل أو بآخر، فكتب طفل مسه تنين قصيدة، وظهر تنين لكاهن مزار بعينه في الحلم، وكشف له النقاب عن لمحات من الحكمة.

بمرور الوقت، مضى رجل إلى حد القول إنه قد رأي تنيناً، وذلك على الرغم من أنه ما من تنين كان من الممكن توقع أن يدفع برأسه فوق سطح الماء. وكان هذا الرجل عجوزاً اعتاد

المضي كل صباح إلى السوق لبيع السمك. وذات فجر أقبل إلى بحيرة ساروساوا. وفي غبش الصباح رأى الامتداد المائي الكبير يلتمع بألق خافت عند الضفة حيث انتصبت شجرة الصفصاف وحيث وضعت اللافتة. على أي حال، كان ذلك هو الوقت الذي ترددت خلاله شائعة التنين على كل لسان، فظن أن التنين قد خرج من البحيرة، فأخذته الرعدة بسبب هذه الفكرة السعيدة من جانب والفظيعة من جانب آخر، وتشبث بشجرة الصفصاف، وحاول التطلع إلى البحيرة، وعندئذ رأى هولة مجهولة تشبه سلسلة سوداء ملتفة جاثمة على نحو رهيب في قاع الماء المتألق بصورة خافتة، وربما خافت الهولة الرهيبة من آثارأقدام إنسان، ففردت طياتها واختفت في مكان ما في لمح البصر. في مواجهة هذا المشهد، غمر العرق البارد الرجل، وعاد إلى الموضع الذي كان قد ترك فيه السمك، لا لشيء إلا ليجد أن مجموعة من الأسماك، من بينها بعض أسماك الشبوط والإنقليس، التي كان يحملها إلى السوق قد اختفت. ضحك البعض من هذه الشائعة قائلين: «ربما خدعه ثعلب ماء عجوز». لكن كثيرين قالوا: «حيث إن من المستحيل على ثعلب ماء أن يعيش في بحيرة يحكمها ملك تنين ويحميها، فإن الملك التنين قد أخذته الشفقة بالأسماك، ولابد أنه قد استدعاها للبحيرة التي يقطنها».

في غضون ذلك، أصبحت الرسالة التي تحملها اللافتة، وهي

أنه: «في الثالث من مارس سيطلع تنين من هذه البحيرة» موضعاً للمزيد والمزيد من الحديث عنها، وابتهج هانازو أشد البهجة وأعظمها بفعل هذا النجاح، وراح يضحك بينه وبين نفسه، ويمد أنفه، ومرَّ الوقت، واقترب الثالث من مارس. وقبل أربعة أيام أو خمسة من صعود التنين المقرر، ولدهشة هانازو الكبيرة، قطعت عمته، وهي كاهنة في ساكوراي بمقاطعة «سيتسو»، الطريق قادمة إلى «نارا»، قائلة إنها تريد مشاهدة صعود التنين. وقد غمره الحرج تماماً، ولجأ إلى التخويف والإقناع وسبل أخرى كثيرة لدفعها للعودة إلى ساكوراي، لكنها رفضت في عناد، وظلت في «نارا»، رافضة الاستماع لنصحه، قائلة: «لقد أوغلت في العمر كثيراً، ولو أنني استطعت أن ألمح الملك التنين، فإنني سأموت سعيدة». ولم يكن بمقدوره الآن أن يعترف بأنه هو نفسه قد قام بدافع من الخبث بوضع اللافتة. وفي النهاية استسلم، ولم يوافق على رعايتها حتى الثالث من مارس فحسب، وإنما اضطر إلى أن يعدها بأنه سيصحبها لرؤية صعود التنين في ذلك اليوم.

ولما كانت الأمور قد وصلت إلى أنه حتى عمته، الكاهنة، قد سمعت بالتنين، فلابد أن الشائعة قد انتشرت إلى مقاطعات «سيتسو»، «إيزومي»، «كاواتشي»، وربما وصولاً إلى مقاطعات «هاريما»، «ياما شيرو»، «أومي وتامبا»، دع جانباً مقاطعة ياماتو.

وقد أسفرت الحيلة الخبيثة التي قام بها بنية خداع أهل «نارا» عن النتيجة المتمثلة في خداع عشرات الألوف من الناس في مقاطعات عديدة. وعندما فكر في هذا أحس بإنزعاج يفوق كثيراً سروره. وبينما مضى يطلع عمته الكاهنة على معابد نارا كل يوم، أحس بأنه يثقل ضميره بالكثير، شأن مجرم يختفي عن ناظري مفوض الشرطة. ولكن بينما أحس من ناحية بعدم الارتياح، عندما علم مما يتردد في الشوارع بأن البخور يحرق وأن الزهور تقدم أمام اللافتة، ومن ناحية أخرى أحس بالسعادة، كما لو أنه حقق إنجازاً عظيماً.

مرت الأيام، وأقبل الثالث من مارس أخيراً، وهو اليوم الذي يتعين أن يصعد فيه التنين إلى السماء.

لما كان وعده لم يترك له بديلاً، فقد اصطحب عمته متردداً إلى قمة الدرج الحجري للبوابة الجنوبية الكبيرة بمعبد كوفوكو، التي تطل من عل على بحيرة ساروساوا. كان اليوم صافياً، خلت السماء فيه من السحب، ولم تكن هبة ريح يمكن أن تقرع ناقوساً من نواقيس الريح عند البوابة.

تجمع المشاهدون الذين كانوا يتطلعون إلى هذا اليوم، قادمين من مقاطعات «كاواتشي»، «إيزومي»، «سيتسو»، «هاريما»، «ياما شيرو»، «أومي»، «تامبا»، ومقاطعات أخرى، دع جانباً مدينة «نارا». أطل من قمة الدرج الحجري، فشاهد على امتداد ما

تصل إليه العين بحراً من البشر يترامى في كل الاتجاهات حتى نهاية طريق «نيجو» في الأفق البعيد الملتف بالغمام، وأصدرت كل أنواع أغطية الرأس الاحتفالية حفيفاً، وهي تتحرك في تموجات. هنا وهناك علت عربات تجرها الثيران زينت بمزيد من العناية بشرابات زرقاء أو حمراء أو بظلال راقية الذوق على كتلة البشر المحيطة بها، وقد زينت سقوفها باللونين الذهبي والفضي، ومضت تتألق على نحو يبهر العين في سنا الشمس الربيعية البديعة. وكان بعض الناس قد نصب مظلاّت واقية من الشمس، وضرب البعض خياماً مسطّحة، وأقام آخرون أكشاكاً في الشوارع. ومثلت المنطقة المجاورة للبحيرة، التي ترامت تحت ناظريه، مشهداً مماثلاً لمهرجان «كامو»، على الرغم من أن ذلك لم يكن في موعد هذا المهرجان. ولم يكن الكاهن هانازو، الذي راح كل ذلك يتراءى أمام عينيه الآن، قد حلم بأن مجرد وضع لافتة من شأنه أن يسبب هذه الضجة الكبرى.

«يالها من جموع هائلة من البشر!» قالها هانازو بصوت واهن، وهو يتطلع إلى الوراء نحو عمته بدهشة بالغة. وجلس القرفصاء عند أسفل عمود البوابة الجنوبية الكبرى، ربما من دون أن تكون لديه الروح التي تدفعه لأن يستاف الهواء بأنفه الكبير.

لكن عمته الكاهنة كانت أبعد ما تكون عن التمكن من قراءة

دخيلة نفسه وما يعتمل فيها من خواطر وأفكار. مدت عنقها بعيداً، حتى أوشك غطاء رأسها أن ينزلق متساقطاً، وتطلعت حولها هنا وهناك، ومضت تثرثر بلا توقف: «حقاً إن مشهد البحيرة التي يقيم فيها الملك التنين لرائع. وبما أن هذه الحشود الهائلة قد أقبلت، فمن المؤكد أن التنين سيظهر. أليس كذلك؟». وراحت تردد أموراً من هذا القبيل.

لم يستطيع هانازو مواصلة البقاء جالساً القرفصاء عند أسفل العمود، فنهض متردداً، ليجد جمعاً كبيراً من الناس يعتمرون أغطية رأس احتفالية مجعدة أو مثلثة على الدرج الحجري، ثم في وسط الجمع من عساه يميز غير الكاهن إيمون، وهو يتطلع بانتباه إلى البحيرة، ورأسه التي تشبه الهاون تعلو على نحو ملموس فوق رؤوس الآخرين. عند هذا المشهد نسى فجأة شعوره التعس. وداعبته على نحو مبهج وسارّ الفكرة القائلة إنه قد استدرج حتى هذا الزميل، فناداه قائلاً: «أيها الكاهن!». وسأله ساخراً: «هل أنت هنا بدورك لمشاهدة صعود التنين؟».

«نعم». قالها إيمون، وهو يتطلع إلى الوراء في صلف، ثم اتخذ هيئة جادة على غير المعتاد، وأضاف فيما حاجباه الأسودان الغليظان يزدادان تصلباً: «إنه يتمهل في الخروج».

أحس هانازو بأن الحيلة قد تجاوزت نفسها، وغاص صوته

المرح منداحاً في السكون، وأطل شارداً على بحر البشر، الذي بدا عاجزاً كعهده. ولكن على الرغم من أن وقتاً طويلاً قد انقضى، لم تبد مؤشرات تدل على صعود التنين في سطح الماء الساكن، الذي غدا فيما يبدو أكثر دفئاً بقليل، وعكس على سطحه بوضوح أشجار الكرز والصفصاف، الممتدة على الضفة، وربما لأن جموعاً من المتفرجين قد تزاحموا على امتداد أميال حول البحيرة، فإنها بدت اليوم أصغر من المعتاد، مقوية الانطباع بأنه يمكن ألا يكون هناك تنين.

لكن جميع المتفرجين انتظروا صابرين باهتمام تتقطع له الأنفاس، كأنما هم لا يحسون بمضي الساعات. امتد بحر البشر تحت البوابة إلى مسافات أبعد فأبعد. ومع مضي الوقت أصبحت العربات التي تجرها الثيران أكثر تعدداً إلى حد أنه في بعض الأماكن ارتطمت محاور بعضها بمحاور البعض الآخر. وربما يمكن من هذه الصورة تخيل مدى البؤس الذي أحس به هانزو حيال هذا المشهد. ولكن حدث شيء غريب عندئذ، حيث بدأ هانازو يحس في صميم فؤاده بأن تنيناً يحتمل بالفعل أن يصعد حقاً. في البداية شرع يحس بأنه قد لا يكون من المستحيل بالنسبة لتنين أن يصعد. لقد كان هو، بالطبع، مبتكر اللافتة، وكان ينبغي ألا تساوره مثل هذه الفكرة العبثية. ولكن بينما كان يتطلع إلى احتشاد أغطية الرؤوس الاحتفالية، بدأ

بالفعل يشعر بأن مثل هذا الحدث الداعي للانزعاج قد يقع.

ربما كان هذا راجعاً إلى أن حماس جموع الناس قد أثر في نفس هانازو، من دون أن يدرك ذلك، أو ربما كان الأمر راجعاً إلى أنه قد أحس بالذنب، عندما فكر في الحقيقة القائلة إن حيلته قد تسببت في مثل هذا الاضطراب الكبير، وإنه من دون أن يدرك ذلك بدأ يرغب في صميم فؤاده في أن يصعد تنين حقاً من البحيرة. أياً كان السبب، فإن شعوره اليائس قد انحسر تدريجياً، وإن كان يعرف تمام المعرفة أنه هو من كتب الجملة التي تتصدر اللافتة، وشرع بدوره يحدق في سطح البحيرة بانتباه، مثل عمته. ولو أنه لم يتحقق لديه هذا الميل لما استطاع أن يظل واقفاً تحت البوابة الجنوبية الكبيرة طوال اليوم، في انتظار الصعود المستحيل للتنين.

لكن بحيرة «ساروساوا»، التي لم ينهض منها تموج واحد، مضت تعكس ضياء الشمس الربيعية. كانت السماء صافية، ومتألقة، ولاتشوبها لمحة من سحابة طافية. ومع ذلك فإن المشاهدين، الذين كانوا لايزالون يتزاحمون كعهدهم تحت المظلاّت والخيام المسطحة ووراء درابزين الأكشاك، مضوا ينتظرون ظهور الملك التنين في انفعالات التوقع، كأنما لم يكونوا يستشعرون مضى الوقت من الصباح إلى الظهيرة فالأصيل ومن الأصيل إلى المساء.

كان نصف النهار، على وجه التقريب، قد انقضى منذ وصول هانازو إلى هناك، ثم أطل خيط سحابة مثل دخان عصا بخور في معبد صيني في الهواء، وفجأة مضى يكبر ويكبر وغدت السماء التي كانت صافية ومتألقة معتمة، وفي تلك اللحظة هبت دفعة ريح، فاجتاحت البحيرة، وموَّجت سطح الماء البلوري، محولة إياه إلى موجات لا حصر لها، ثم في غمضة عين انهمر مطر أشهب مدراراً أمام المشاهدين قبل أن يتاح لهم، على الرغم من استعدادهم، أن يتراكضوا مسرعين كيفما اتفق. فضلاً عن ذلك، فقد دوت اصطفاقات رعد رائعة، وتتابعت التماعات البرق إحداها وراء الأخرى، مثلما لحُمات عرضية في قماش ينسج، ثم بدا أن يدين مشبوكتين معاً تمزقان دفقاً من السحب، وفي غمار قوتهما الجامحة رفعتا دفقاً من الماء فوق البحيرة. وفي تلك اللحظة لمحت عينا هانازو مشهداً مختلجاً لتنين أسود، يزيد طوله عن مئة قدم، وهو يصعد مباشرة إلى السماء، وقد التمعت براثنه الذهبية. ولكن هذا حدث في لمحة عين، وبعد ذلك، ووسط عاصفة، شوهدت براعم الكرز حول البحيرة وهي تتطاير إلى السماء المدلهمة. وما من حاجة للقول إن المشاهدين الذين استبد بهم الاضطراب، فيما هم يسرعون مبتعدين، قد شكلوا موجات بشرية إنداحت مثلما موجات البحيرة.

توقف المطر المنهمر مدراراً بالفعل، وبدأت سماء زرقاء تطل

عبر السحب. وحدق هانازو فيما حوله، كأنما كان قد نسى أنفه الكبير. هل كان مشهد التنين الذي رآه لتوه وهماً؟ بينما راح يتساءل، هو الذي كتب اللافتة، بدأ يشعر بأن صعود التنين كان أمراً مستحيلاً. ومع ذلك فإنه لم يره بالفعل. هكذا فإنه كلما أمعن التفكير في هذه الواقعة غدت أكثر غموضاً. في ذلك الوقت، وفيما هو يرفع عمته التي كانت ممددة، أقرب إلى الموت منها إلى الحياة عند أسفل عمود البوابة القريب، عجز عن إخفاء حيرته وخوفه. سألها على استحياء: «هل رأيت التنين؟».

تنهدت عمته، التي غمرها الذهول لبعض الوقت، تنهيدة عظيمة، ولم تستطع إلا تكرار إيماءة الموافقة في خوف. وفي التو أجابت بصوت مرتجف: «يقيناً رأيته. ألم يكن تنيناً سابغ السواد لا تلتمع فيه إلا براثنه الذهبية؟».

هكذا ربما لم تكن عينا هانازو، أو كورودو توكوجايو، هما وحدهما اللتان شاهدتا التنين. نعم، لقد قيل لاحقاً إن معظم الناس من كل الأعمار والأجناس الذين كانوا هناك في ذلك اليوم قد شاهدوا التنين الأسود، وهو يصعد إلى السماء في سحابة مظلمة.

إعترف هانازو، في وقت لاحق، بأن اللافتة كانت فكرة خبيثة من أفكاره. ولكن قيل لي إنه ما من أحد من زملائه الكهنة، بمن في ذلك إيمون، قد صدق اعترافه. الآن هل أصابت لافتته

هدفها؟ أم أخطأته؟ سلوا هانازو أو كورودو توكوجايو ذا الأنف الكبير، وربما سيعجز هو نفسه عن الرد على هذا السؤال!».

قال أوجي ديناجون تاكاكوني: «يالها من قصة غامضة حقاً! في الأيام الخوالي يبدو أن تنيناً كان يحيا في بحيرة ساروساوا تلك. ماذا! لا يمكنك القول إنه كان يحيا فيها حتى في الأيام الخوالي؟ نعم، لابد أنه في تلك الأيام الخوالي قد أقام هناك. في تلك الأيام، إعتقد كل الناس أن التنانين تقيم في قاع المياه. هكذا فإن التنانين كان ينبغي أن تحلق بصورة طبيعية بين السماء والأرض، وفي بعض الأحيان كان ينبغي أن تظهر في أشكال غامضة. ولكنني أفضل أن أسمع قصصكم على أن أدلي بتعليقاتي. القصة التالية هي من نصيب الكاهن الجوال. أليس كذلك؟».

واصل تاكاكوني حديثه: «ماذا؟ هل تدور قصتك حول كاهن طويل الأنف يدعى إكينو ـ نو ـ زنتشينايجو؟ سيكون ذلك أكثر إثارة للاهتمام في أعقاب قصة هانازو. الآن اروها على مسامعي في التو!».

المحتويات

١ - مقدمة المترجم 5
٢ - تصدير 21
٣ - مقدمة 23
٤ - في غابة 29
٥ - راشومون 47
٦ - عصيدة إليام 59
٧ - الضحية 93
٨ - كيسا وموريتو 113
٩ - التنين 129

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة